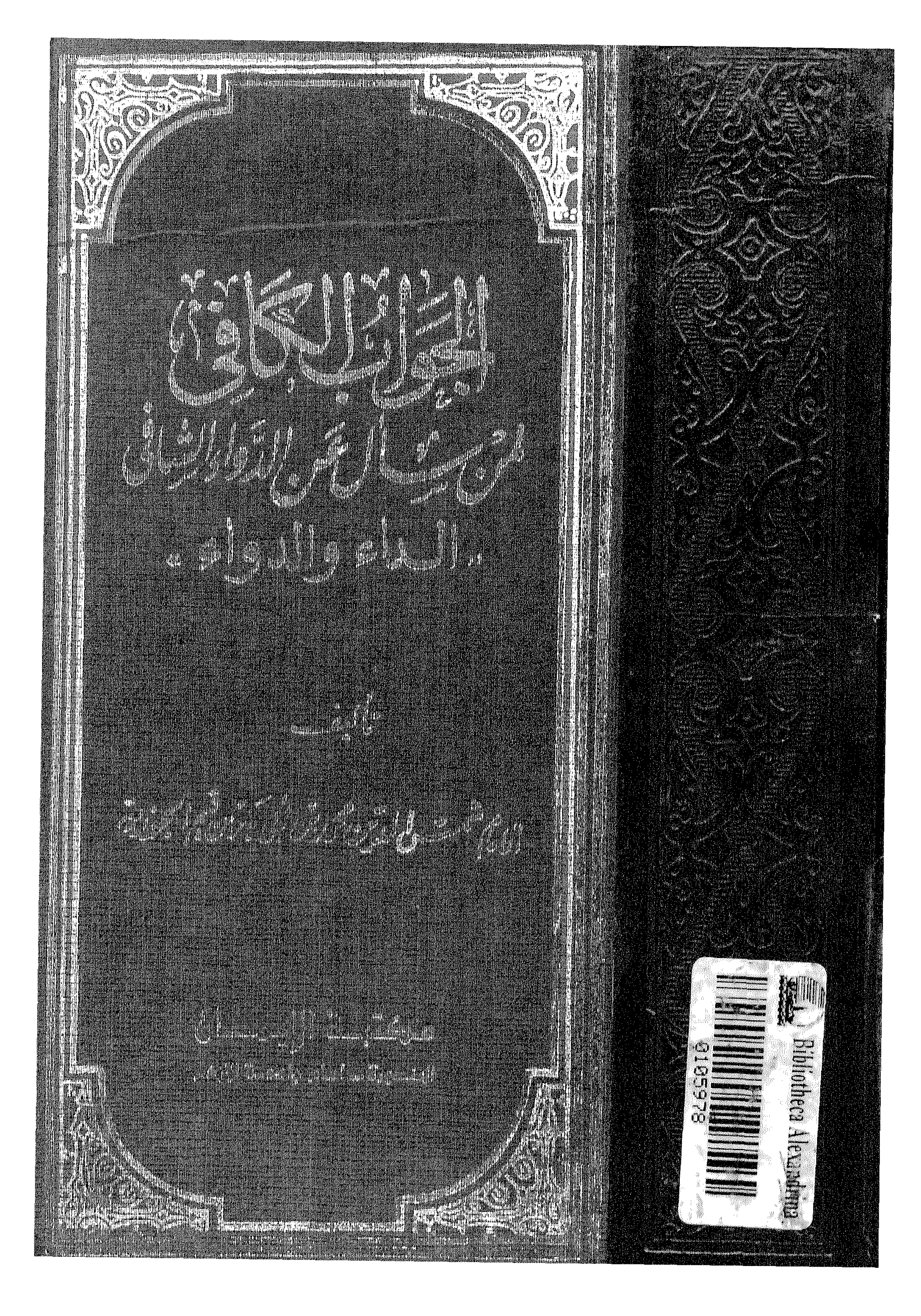

الجواب الكافي
لمن سأل عن الدواء الشافي
«الداء والدواء»
تأليف
Bibliotheca Alexandrina
0105978







الداء والدواء

أو

الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

اسمه ولقبه:

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي الملقب بشمس الدين والمكنى بأبي عبد الله والمعروف بابن قيم الجوزية، والجوزية مدرسة كان أبوه قيماً عليها.

مولده:

ولد في ٧ من صفر سنة (٦٩١) هـ. قال ابن رجب الحنبلي: سمع من الشهاب النابلسي العابد، والقاضي تقي الدين سليمان، وفاطمة بنت جوهر، وعيسى الطعم، وأبي بكر بن عبد الدائم، وتفقه في المذهب وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين، وأخذ عنه وقال: قال الذهبي في المختصر: عني بالحديث ومتونه ورجاله، وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين، قال ابن رجب: وكان عارفاً بالتفسير لا يجاري فيه، وبأصول الدين، وإليه فيها المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله اليد الطولى، وبعلم الكلام وبغير ذلك، وعالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ورقائقهم، له في كل من هذه الفنون اليد الطولى.

جهاده وتعرضه للبلاء والسجن:

حبس ابن القيم لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل، وأوذي مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين بن تيمية في المدة الأخيرة بالقلعة منفردًا عنه، ثم فرج

عنه بعد موت الشيخ ابن تيمية، وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القران وبالتدبر والتفكر.

دراساته ومصَنَّفاته:

قال ابن رجب: وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه: ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، ودرّس بالصدرية، وأمّ الجوزية [وهي مدرسة كان أبوه يتولى شأنها ويقوم عليها]، وكتب بخطه مالا يوصف كثرة، وصنف تصانيف كثيرة جدًا في أنواع العلم، وكان شديد المحبة للعلم، كتابته ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء كتبه، واقتنى من الكتب مالا يحصل لغيره، قال ابن رجب: فمن تصانيفه: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»، و«أعلام الموقعين عن رب العالمين»، و«إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، و«بدائع الفوائد»، و«التبيان في أقسام القرآن»، و«تحفة الودود بأحكام المولود».. ثم ذكر ابن رجب مصنفات أخرى.

وفاته:

توفي وقت العشاء ليلة الخميس ثالث عشر رجب سنة (٧٥٢) وصلى عليه من الغد عقيب الظهر بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير، وشيعه خلق كثير. هكذا نقل ابن رجب.

بِسْمِ اللّهِ الرحمن الرَّحيم

وبه نستعين

سُئل الشيخ الإمام العالم العلاّمة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمّد ابن الشيخ الصالح أبي بكر ، عرف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه :

ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضي الله عنهم أجمعين ، في رجلٍ ابتلى ببلية ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دُنياه وآخرته ؟ وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما تزداد إلاّ توقداً وشدة ، فما الحيلة في دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلي ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى .

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتي المسلمين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيُّوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى :

الحمد لله ، أما بعد : فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا أَنزَلَ الله داءً إلاّ أَنْزَلَ الله لَهُ شِفَاءً » .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فإذا أُصِيبَ دَوَاء الدَّاءِ بَرِأَ بإِذْنِ الله » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أُسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : « إنَّ الله لَمْ يُنْزِل دَاءً إلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاء ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ » . وفي لفظ « إنَّ الله لَمْ يَضَع دَاء إلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاء ، أَوْ دَوَاء ، إلاَّ دَاءً وَاحِداً . قَالُوا : يَا رَسُولَ الله مَا هُوَ ؟ قال : الهَرَم » . قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وهذا يعم أدواء القلب والرّوح والبدن وأدويتها ، وقد جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء .

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : « خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حجر ، فشجّه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلمّا قدمنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك . فقال : قَتَلُوهُ ، قَتَلَهُم الله ! ألاَ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا ؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤالُ ، إنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّم وَيَعصر - أو يعصب - عَلَى جرحه خِرْقَة ، ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَيْهَا ، وَيَغْسِل سَائِر جَسَدِهِ » فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتـه ؟ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِن القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَة لِلْمُؤْمِنِين ﴾ [الإسراء : ٨٢] . و« من » هنا لبيان الجنس لا للتبعيض ، فإن القرآن كله شفاء ، كما قال في الآية المتقدمة ، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والرّيب ، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعمّ ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد قال : « انطلق نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها ، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم فلُدِغَ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لُدِغ ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه

شيء . فهل عند أحدٍ منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لأرقي ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لي جُعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفُل عليه ويقرأ : ﴿ الحمدُ لله رب العَالَمِينَ ﴾ فكأنما نَشَطَ من عِقال ، فانطلق يمشي ، وما به قَلَبَة فأوفوهم جُعلَهم الذي صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذي رقى : لا نفعل حتى نأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان ، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ذلك فقال : وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم ، اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً . فقد أثّر (هذا) الدواء في هذا الداء وأزاله ، حتى كأنه لم يكن . وهو أسهل دواء وأيسره ، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء . ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيباً ، فكنتُ أصف ذلك لمن يشتكي ألماً ، فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً .

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يُستشفى بها ويُرقى بها ، هي في نفسها نافعة شافية . ولكن تستدعي قبول المحل ، وقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون المانع قوي يمنع من اقتضائه أثره ، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . فكذلك القلب إذا أخَذَ الرُّقى والتعاويذ بقبولٍ تام ، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء .

وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إما لضعفه في نفسه ـ بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه

من العدوان ـ وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورَين الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها . كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » .

واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ ، فهذا دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيُّها النَّاس ، إنَّ الله طَيِّبٌ : لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً وَإنَّ الله أَمَرَ المؤْمِنِين بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِين فقال ﴿ يَا أَيُّها الرّسل كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحَاً إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، وَمَطعمه حرام ، ومَشربه حرام ، وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ » وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه « أصاب بني إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحىٰ الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدانٍ نجسة ، وترفعون إليَّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم ؟ ولن تزدادوا مني إلاَّ بُعداً » . وقال أبو ذر : يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح .

فصل : الدعاء من أنفع الأدوية

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدُّعَاءُ سِلاَحُ المُؤْمِن ، وَعِمَادُ الدِّين ، وَنُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » .

وله مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضيَ الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَر . وَالدُّعاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل ، وَإِنَّ البَلاَء لينزل فيلقاه الدعاء فيَعْتَلِجان إلى يَوْم القِيَامَة » .

وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « الدُّعاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل ، فَعَلَيْكُم عِبَادَ الله بِالدُّعاءِ » .

وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَرُدُّ القَدَر إلاَّ الدُّعَاء ، وَلاَ يَزِيد فِي العُمْرِ إلاَّ البِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُل ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه » .

فصل : الإلحاح فى الدعاء

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح في الدعاء .

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغضب عَلَيْهِ » .

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَعْجَزُوا في الدُّعَاءِ ، فإنَّهُ لاَ يهلك مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ » .

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله يُحِبُّ المُلِحِّين فِي الدُّعَاءِ » .

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مُورِّق : « ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً في البحر على خشبة ، فهويدعو : يا رب . . يا رب ، لعل الله عز وجل أن ينجيه » .

فصل : من آفات الدعاء

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد ، ويستبطىء الإجابة ، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً ، فجعل يتعاهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُسْتَجَابُ لأحَدِكُم مَا لَمْ يعجل ، يقول : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي » .

وفي صحيح مسلم عنه : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت وقد دعوت ، فلم أرَ يستجاب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » .

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يا رسول الله ، كيف يستعجل؟ قال : يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي » .

فصل : أوقات الإجابة

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة ـ وهو : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضي الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر ـ وصادف خشوعاً في القلب ؛ وانكساراً بين يدي الرب ، وذلاً له وتضرعاً ورقة ، واستقبل الداعي القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله ، وبدأ بحمد الله والثناء عليه ،

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله ، وألح عليه في المسألة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

فمنها ما في السنن و (في) صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : « اللّهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلّا أنت ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال : لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب » . وفي لفظ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم » .

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك : « أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلي ، ثم دعا فقال : اللّهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لقد دَعَا الله باسمه العظيم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى » .

وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده .

وفي جامع الترمذي ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . وفاتحة آل عمران ﴿ الٓمٓ . اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ . قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلِظُّوا بِيا ذا الجلالِ والإكْرَامِ » يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أن النَّبيَّ صَلَّى الله عليهِ وسلم كانَ إذا أهمه الأمر رفعَ رأْسه إلى السّماء ، وإذا اجتهد في الدعاء قال : يَا حَيُّ يَا قَيُّوم » .

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : « كانَ النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلم إذا حزَّ به أمر قال: يَا حي يا قيوم . برحمتك أسْتغيث » .

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أُمامة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقـرة ، وآل عمران ، وطـه » . قال القاسم : فالتمستُها فإذا هي آية ﴿ الحَي القَيُّوم ﴾ .

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « دَعْوة ذِي النُّون ، إذ دَعا وهُو في بطن الحُوت » ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] أنه لم يدْعُ بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له » . قال الترمذي : حديث صحيح .

وفي مستدرك الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يُفرِّج الله عنه ؟ دُعَاءَ ذِي النُّون » .

وفي صحيحه أيضاً عنه أنه سمعَ النبي صلى الله عليهِ وسلم وهو يقول : « هَلْ أدلُكم على اسم الله الأعظم ؟ دُعاء يونس . قال رجل : يا رسول الله ، هل كانت ليُونس خاصة ؟ فقال : ألاَ تسمع قوله تعالى ﴿ فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِين ﴾ [الأنبياء : ٨٨] فأيما مسلم دَعا بها في مرضهِ أربعين مرّة فمات في مرضه ذلك أُعطيَ أجر شهيد ، وإن برىء مغفوراً له » .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عنْد الكرب : « لَا إِلَهَ إِلَّا الله العظيم الحليم ، لَا إله إلا رب العرش العظيم ، لَا إله إلَّا الله رب السّموات السّبع ورب الأرض ورب العرش الكريم » .

وفي مسند الإمام أحمـد من حديث علي بن أبي طـالب رضي الله عنه قـال :

« عَلَّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل كرب أن أقول : لَا إلَهَ إلاَّ الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » .

وفي مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ ، فقال : اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ ابن عَبْدِكَ ابن أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حكمُك ، عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤك ، أَسْأَلك اللَّهُمَّ بكلِّ اسمٍ هُوَ لكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِن خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِـكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلم الغَيْبِ عِنْدَكَ : أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إلاَّ أَذْهَبَ الله عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً ، فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ قال : بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » .

وقال ابن مسعود : « ما كُرِب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح » .

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين وفي الدعاء عن الحسن قال : « كان رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجراً يتجر بماله له ولغيره ، يضرب به في الآفاق ، وكان ناسكاً ورعاً ، فخرج مرّة فلقيه لص مقنع في السلاح. فقال له : ضع ما معك ، فإني قاتلك . قال : ما تريد من دمي ؟ شأنك بالمال . قال : أما المال فلي ، ولست أُريد إلا دمك . أما إذا أبيت فذرني أُصلي أربع ركعات . قال صل ما بدا لك . فتوضأ ثمّ صلى أربع ركعات . فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال : يا ودود يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالاً لما تريْد ، أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك : أن تكفيني شر هذا اللص : يا مغيث أغثني ، يا مغيث أغثني . ثلاث مرات . فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله . ثم أقبل إليه فقال : قم . فقال : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقد أغاثني الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعتُ لأبواب

السماء قعقعة . ثمّ دعوتَ بدعائك الثاني فسمعتُ لأهل السماء ضجة . ثمّ دعوتَ بدعائك الثالث فقيل لي : دعاء مكروب . فسألت الله أن يوليني قتله : قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب .

فصل : ظروف الدعاء

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك ، فأُجيبت دعوته ، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي ، فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر . فيظن الجاهل أن السر للقبر ، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجوء إلى الله . فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله .

فصل : شروط الدعاء المستجاب

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه ، لا بحده فقط . فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعد قوي ، والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو . ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير ، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة ، لم يحصل الأثر

فصل : الدعاء والقدر

وههنا سؤال مشهور ، وهو أن المدعوّ به إن كان قُدِّر لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سوا سأله العبد أو لم يسأله .

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء . وقالت : لا فائدة فيه . وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم : إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل . وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل . وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه ، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ . وإن لم يقدر ذلك لم يكن ، فلا حاجة إلى التزوج والتسري . وهلُمَّ جرًا . فهل يقول هذا عاقل أو آدمي ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته . فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً .

وتكايس(1) بعضهم وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت . وهذا كما إذا رأيت غيما أسود بارداً في زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب . والعقاب ، لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل . ليس شيء من ذلك سبباً ألبتّة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادي ، لا التأثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر

طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء .

والصواب : أو ههنا قسماً ثالثاً ، غير ما ذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قُدر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجرداً عن سببه ، ولكن قدر سببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق . وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال . وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ في حصول المطلوب .

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأفقهم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه . وكان أعظم جنديه . وكان يقول لأصحابه « لستم تنصرون بكثرة ، وإنما تنصرون من السماء » . وكان يقول « إني لا أحمل هَمَّ الإجابة معه . ولكن هم الدعاء . فإذا ألهمتم فإن الدعاء الإجابة معه » . وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما عودتني الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغْضَبْ عَلَيْهِ » وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته . وإذا رضي الرّب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه ، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثراً « أَنَا اللهُ ، لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنَا ، إِذا رَضِيتُ بَارَكْتُ ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَىٰ . وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغ السَّابع مِنَ الولد » .

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأُمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونِحلِها ـ على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه .

وقد رتّب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع ، فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتوا عَمَّا نُهُوا عنهُ قُلْنَا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين ﴾ [الأعراف : ١٦٦] . وقوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونا آنتَقَمْنَا مِنْهُم ﴾ [الزخرف : ٥٥] . وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهُما جزاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة : ٣٨] . وقوله : ﴿ إِنَّ المُسْلِمينَ وَالمُسْلِمَاتِ ، وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ، وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ ، والصَّابِرِينَ وَالصَّابَراتِ ، والخَاشِعِينَ والخاشِعَات ، وَالمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقاتِ ، وَالصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ ، وَالحَافِظِينَ فُرُوجهم والحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٣٥] . وهذا كثير جدّاً ، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لكُم فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لكُم ﴾ [الأنفال : ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُم فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ آسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقا ﴾ [الجن : ١٦] ونظائره . وتارة يأتي بلام التعليل كقوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ [صٓ : ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وتارة يأتي بأداة « كي » التي للتعليل ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] . وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى · ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٢] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٥] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٣] . وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . وكقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] . وقوله : ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] أي كراهة أن تقولوا ، وتارة يأتي بفاء السببية ، كقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤ ، ١٥] .وقوله :﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة : ١٠] . وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٨] ونظائره . وتارة يأتي بأداة « لما » الدالة على الجزاء كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ونظائره . وتارة يأتي بإن وما عملت فيه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . وقوله في ضد هؤلاء : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] . وتارة يأتي بأداة « لولا » الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤] . وتارة يأتي « بلو » الدالة على الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [النساء : ٦٦] .

وبالجملة . فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب . بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على

القدر جهلاً منه ، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ، فيكونُ توكله عجزاً ، وعجزه توكلا . بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارضُ القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك ، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر . والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا ، وما يضاده سواء ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حق رعايتها ، والله المستعان .

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه :

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم ، وما جربه في نفسه وغيره ، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً .

ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة . ثمّ السنّة ، فإنها شقيقة القرآن ، وهي الوحي الثاني . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهمّا عن غيرهما . وهما يزيانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك عياناً . وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنّة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عَرَّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر .

فصل : مغالطة النفس حول الأسباب

الأمر الثاني : أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب . وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه

وآخرته ولا بد ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة ، وبفعل المندوبات تارة ، وبالعلم تارة ، وبالاحتجاج بالقدر تارة ، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة ، وبالاقتداءِ بالأكابر تارة أخرى .

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال (أستغفرُ الله) زال الذنب ، وراح هذا بهذا . وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه : أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال في يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر » . وقال لي آخر من أهل مكة : نحن أحدنا إذا فعل ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً وقد محى عنه ذلك . وقال لي آخر : قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أذهب عبد ذنباً فقال : أي ربِّ أصبتُ ذنباً فاغفر لي ، فغفر له ، ثمّ مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : أي رب ، أصبتُ ذنباً فاغفر لي ، فقال الله عز وجل : علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به . قد غفرت لعبدي ، فليصنع ما شاء » . قال : وأنا لا أشك أن لي ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به . وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء ، واتكل عليها ، وتعلق بكلتا يديه ، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء . وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب ، كقول بعضهم :

وكثّر ما استطعت من الخطايا   إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله .

وقول الآخر : ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار .

وقال محمد بن حزم : رأيت بعض هؤلاءِ يقول في دعائه : اللّهم إني أعوذ بك من العصمة .

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر ، وأن العبد لا فعل له البتّة ولا اختيار ، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي .

ومن هؤلاءِ من يغتر بمسألة الإرجاء ، وأن الإيمان هو مجرد التصديق ، والأعمال ليست من الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل .

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم ، والاستشفاع بهم ، والتوسل إلى الله بهم ، وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده .

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه ، وأن لهم عند الله مكاناً وصلاَحاً ، فلا يَدَعوه أن يخلّصوه ، كما يشاهد في حضرة الملوك ، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مُفْظع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته .

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه ، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً . ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئاً . فيقول : أنا مضطر إلى رحمته : وهو أغنى الأغنياء ، ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع ، والمغفرة لا تنقصه شيئاً ، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً .

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة ، فاتكلوا كاتكال بعضهم على قوله تعالى : ﴿ ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضُحى : ٥] . وهو لا يرضى أن يكون في النار . وهذا من أقبح الجهل ، وأبين الكذب عليه ، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل ، والله تعالى يرضيه تعذيب الظَّلَمَة والفسقة والخونة والمصرِّين على الكبائر ، فحاشا برسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى : ﴿ إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً ﴾ [الزُّمر : ٩٣] وهذا أيضاً من أقبح الجهل ، فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها . ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين ، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان . ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها . وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة . وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه ، فإنه سبحانه ههنا عمم

وأطلق ، فعلم أنه أراد التائبين . وفي سورة النساء خصص وقيد فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاء ﴾ [النساء : ٤٨] . فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر ما دونه ، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره . وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] . فيقول : كرمه ، وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حجته ، وهذا جهل قبيح ، وإنما غره به الغرور ، وهو الشيطان ، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه وأتى سبحانه بلفظ « الكريم » وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه ، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه ، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١٥ ، ١٦] وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤] . ولم يدر هذا المغتر أن قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل : ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها ، بل قال ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَىٰ ﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها ، فإن الصلي أخص من الدخول ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم .

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضموناً له أن يُجنَّبها .

وأما قوله تعالى في النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فقد قال في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة . ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيراً قط .

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم عاشوراء ، أو يوم عرفة ، حتى يقول بعضهم : صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر . ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء ، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر ، فرمضان الى

رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها ، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر . فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها ، غير تائب منها ؟ هذا محال . على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير ، فإذا لم يُصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار ، وتعاونهما على عموم التكفير . كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما . وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل .

وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه : « أنا عند حُسن ظن عبدي بي . فليظن بي ما يشاء » يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به . ولا ريب أن حُسن الظن إنما يكون مع الإحسان ، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجاريه على إحسانه ولا يخلف وعده ، ويقبل توبته ، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود في الشاهد ، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يُحسن الظن به ، ولا يُجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً ، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته ، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له ، كما قال الحسن البصري : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل .

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه ، متعرض للعنته ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه ، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه ؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة ، وعادى أولياءه ، ووالى أعداءه ، وجحد صفات له ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله

عليه وسلم وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يرضى ولا يغضب ، وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول : ﴿ وَذٰلِكُم ظَنُّكُم الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكم أرْداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فُصِّلت : ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم ، فأرداهم ذلك الظن ، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ، ووصفه بما لا يليق به ، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان ، لا إحسان ظن بربه .

فتأمّل هذا الموضع ، وتأمل شدة الحاجة إليه ، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله ، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ، ويعلم سره وعلانيته ، ولا يخفى عليه خافية من أمره ، وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل ، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره ، معطل لحقوقه ، وهو مع هذا يحسن الظن به ، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني ؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف : « دخلت أنا وعروة ابن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت : لو رأيتما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض له ، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير ، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها ، فشغلني وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله ، ثمّ سألني عنها فقال : ما فعلتِ ؟ أكنتِ فرّقتِ الستة الدنانير ؟ فقلت : لا والله ، لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها فوضعها في كفه ، فقال : « ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده ؟ » . وفي لفظ « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده » .

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم . فإن كان ينفعهم قولهم : حسّنا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالما ولا فاسقاً ، فليصنع العبد ما شاء ، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه ، وليحسن ظنه بالله ، فإن النار لا تمسه ، فسبحان الله ؟ ما يبلغ الغرور بالعبد ؟ وقد قال إبراهيم لقومه : ﴿ أإفكا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ؟ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمين ؟ ﴾ [الصافات : ٨٦] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره .

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه ، فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن ، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز ، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكَيِّسُ مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » .

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة ، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن .

فإن قيل : بل يتأتى ذلك ، ويكون مستَنَد حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه لا تنفعه العقوبة ، ولا يضره العفو .

قيل : الأمر هكذا ، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به ، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام ، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة ، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ووليه وعدوه ، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باءَ بسخطه وغضبه ، وتعرض للعنته ، ووقع في محارمه ، وانتهك حرماته ، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع ، وبدل السيئة بالحسنة . واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة . ثم أحسن الظن بعدها فهذا حسن الظن . والأول غرور ، والله المستعان .

ولا تستطل هذا الفصل ، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاسقين ، وقال تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : ١١٩] فأخبر سبحانه

أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها ، فالعالم يضع الرجاء مواضعه . والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه .

فصل : الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه ، فضيعوا أمره ونهيه . ونسوا أنه شديد العقاب ، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند .

قال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .

وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا .

وقيل للحسن : أراك طويل البكاء . فقال : أخاف أن يطرحني ولا يبالي .

وكان يقول : إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم : لأني أحسن الظن بربي ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، ما أصابك ! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ! فيقول : آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال : « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع ، فقال : أف لك ، فظننت أنه يريدني ، فقال : لا ، ولكن هذا قبر فلان ، بعثته ساعياً إلى آل فلان ، فغلّ نَمِرة فدُرِّع الآن مثلها من نار » .

وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ! قالوا : خطباء من أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناسَ بالبر وينسَوْن أنفسهم » .

وفيه أيضاً من حديثه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عُرِّج بي ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاءِ يا جبريل ؟ ! فقال : هؤلاء الذين كانوا يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » .

وفيه أيضاً عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول . يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبِّت قلبي على دينك . فقلنا يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء.

وفيه أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ !قال : ما ضحك منذ خلقت النار » .

وفي صحيح مسلم عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ في النار صبغة ، ثمّ يقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ في الجنة صبغة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب ، ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

وفي المسند من حديث البراء بن عازب ، قال : « خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ببعض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليِّين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أُعيدهم ، ومنها أُخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان ، فيُجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله عز وجل ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو (محمد) رسول الله فيقولان له: وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره . قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة . . رب أقم الساعة ، حتى أرجع الى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر ، إذا كان في

انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : آخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتغرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلّا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي يسمى بها في الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له . ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يلج الجمل في سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سِجِّين ، وفي الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ثمّ قرأ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه . . . هاه ، لا أدري فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه . هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي ، فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح . فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة » .

وفي لفظ لأحمد أيضاً « ثم يقيِّض له أعمى أصم أبكم ، في يده مرزبَّة ، لو ضرب بها جبلاً كان تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين » . قال البراء « ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهد له من فراش النار » .

وفي المسند أيضاً عنه قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

بصر بجماعة فقال : علام اجتمع هؤلاء ؟ قيل : على قبر يحفرونه ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً ، حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى حتى بلَّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا فقال : أي إخواني ، لمثل هذا اليوم فأعدوا » .

وفي المسند من حديث بريدة قال : « خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فنادى ثلاث مرات : يا أيها الناس ، أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فأبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أُتيتم ، أيها الناس أُتيتم ـ ثلاث مرات » .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام ، وإن على الله عز وجل عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » .

وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » . قال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد .

وفي المسند أيضاً من حديث حذيفة قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه ، فجعل يردد بصره فيه ، ثم قال : يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ، ويملأ على الكافر ناراً » . والحمائل : عروق الأنثيين .

وفي المسند أيضاً من حديث جابر قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفي ، فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

ووضع في قبره وسوّي عليه ، سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسبحنا طويلاً ، ثم كبّر فكبّرنا ، فقيل : يا رسول الله ، لِمَ سبحت ؟ ثم كبّرت فقال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه » .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني . . قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ، أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حرها كذا وكذا ، تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور ، يغرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق» .

وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ! وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ . فقال أصحابه : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وفي المسند أيضاً عن ابن عمر يرفعه « من تعظم في نفسه ، أو اختال في مشيته ، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » .

وفي الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وفيهما (أيضاً) عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة » .

وفيهما أيضاً عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح . ثم ينادي مناد :

يا أهل الجنة خلود فلا موت . ويا أهل النار خلود فلا موت . فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم » .

وفي المسند عنه قال : « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » . ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثمّ قال : صُمَّتا إن لم أكن سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقوله .

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها . ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه طينة الخبال ، قيل وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : عصارة أهل جهنم » .

وفيه أيضاً عنه مرفوعاً : « من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال : فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة » .

وفي المسند أيضاً من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغوطة . قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن » .

وفيه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه ، أو آخذ بشماله » .

وفي المسند أيضاً من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إيّاكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً : كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا

ناراً ، فأنضجوا ما قذفوا فيها » .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يضرب الجسر على جهنم ، فأكون أول من يجوز ، ودعوى الرسل يومئذ : اللّهم سلم سلم ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصبّ عليهمْ من ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل » .

وفي صحيح مسلم عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها . فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قُتِلت . قال كذبت ، ولكن قاتلت ليقال : هو جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار ، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم ، فقيد قيل ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل . ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، وفي لفظ : فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : كما أن خير الناس الأنبياء ، فشر الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم ، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون ، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأته ، فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، أُعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار »

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » .

وفي الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ناركم هذه التي يوقِد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وفي المسند عن معاذ قال : « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قتلت أو حرقت ، ولا تعقنّ والديك ، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمراً ، فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية ، فإن المعصية تحل سخط الله » .

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا ، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ، ويرسل نفسه في المعاصي ، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن

قال أبو الوفاء بن عقيل : احذره ولا تغتر به ، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم ، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر ، وقد دخلت امرأة النار في هرّة ، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل رجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار في

ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مَرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندي شيء . قالوا له : قرِّب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » . وهذه الكلمة الواحدة يتلكم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وربما اتكل بعض المغترِّين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير به ، ويظن أن ذلك من محبة الله له ، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك . وهذا من الغرور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، » ثمّ تلا قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُون ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وقال بعض السلف : إذا رأيت الله يتابع عليك نعمَهُ وأنت مقيم على معاصيه فاحذره ، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابَاً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُون ، وَزُخْرُفاً . وَإِنَّ كُلُّ ذَٰلِكَ لما متاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِين ﴾ [الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥] . وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَه وَنَعَّمَه فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَر عَلَيْهِ رِزْقَه فَيَقُولُ : رَبِّي أَهَانَن ، كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ ـ ١٧] . أي ليس كل من نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته ، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهَنْته ، بل أبتلي هذا بالنعم ، وأكرم هذا بالابتلاء .

وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعطي الدُّنيا من يحب

ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » .

وقال بعض السلف : رُبَّ مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم . ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم .

فصل : الاغترار بالدنيا

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها ، فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، والنقد أحسن من النسيئة . ويقول بعضهم : ذرة منقودة ، ولا درة موعودة . ويقول آخر منهم : لذات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين بالشك .

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله . والبهائم العجم أعقل من هؤلاء ، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت ، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه ، وهو بين مصدق ومكذب .

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له .

وقول هذا القائل : النقد خير من النسيئة ، جوابه : إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير . وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير . فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفَس واحد من أنفاس الآخرة ؟ كما في مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل . وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟ فأيما أولى بالعاقل ؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم في الآخرة ، أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب ، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له ، ولا نهاية لعدده ، ولا غاية لأمده .

فأما قول الآخر : لا أترك متيقّناً لمشكوك فيه . فيقال له : إما أن تكون على شك

من وعد الله ووعيده وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك ، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب ، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له . وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروه به عن الله ، وتجرَّدْ وقُمْ لله ناظراً أو مناظراً ، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه ، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه . ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه ، وأنكر ربوبيته وملكه ، إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلاً ، لا يعلم شيئاً ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يثيب ، ولا يعاقب ، ولا يعز من يشاء ، ولا يذل من يشاء ، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً . وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به ، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟ .

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عني به هذه العناية ، ونقله في هذه الأحوال ، وصرّفه في هذه الأطوار ، لا يليق به أن يهمله ويتركه سُدَىً ، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرّفه حقوقه عليه ، ولا يثيبه ولا يعاقبه . ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد ، وأن القرآن كلامه . وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُون ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٣٨ : ٤٠] . وذكرنا طرفاً من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾ [الذاريات : ٢١] وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده ، وصدق رسله ، وإثبات صفات كماله .

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين : تقدير تصديقه ويقينه ، وتقدير تكذيبه وشكه . .

فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار

ويتخلف العمل ؟ وهل في الطباع البشرية آن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهياً غافلاً ، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعدّ له ، ولا يأخذ له أهبته .

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب .

أحدها : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة .

وقد روى أحمد في مسنده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس المُخبر كالمعاين »

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدمَ استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان . واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحبّ العاجلة ، ورُخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال ، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ [السجدة : ٢٤) .

فصل : الفرق بين حسن الظن والغرور

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور ، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء ، فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة وزاجراً له عن المعصية ، فهو رجاء صحيح . ومن كانت بطالته رجاء . ورجاؤه بطالة وتفريطاً ، فهو المغرور . ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه ، فأهملها ولم يبذرها . ولم يحرثها ، وحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعدّه الناس من أسفه السفهاء . وكذلك لو حسن ظنه وقوي رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع ، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه ، وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبالله التوفيق .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟

قال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره ، الباغين على عباده ، المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله . . .

وسر المسألة : أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته ، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ، ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها .

فصل رجاء والأماني

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني . والرجاء شيء والأماني شيء آخر ، فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

وفي جامع الترمذي مُن حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أُدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » . وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُون . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِم لَا يَشْرِكُون ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ - ٦١] .

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : لا ، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم ، أُولئك يسارعون في الخيرات » . وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن .

ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف . ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن ، فهذا الصديق رضي الله عنه يقول : وددت أني شعرة في جنب عبدٍ مؤمن ، ذكره أحمد عنه .

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، وكان يبكي كثيراً ويقول : آبكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا . وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل . وأتي بطائر فقلبه ثم قال : ما صيد من صيد ، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح ، فلما احتضر قال لعائشة : يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد ، فأسرعي به إلى ابن الخطاب . وقال : والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد .

وقال قتادة : بلغني أن أبا بكر قال : ليتني خضرة تأكلني الدواب .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : ٧] بكى وآشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه .

وقال لابنه وهو في الموت : ويحك ضع خدي على الأرض ، عساه أن يرحمني ثم قال : بل ويل أمي . إن لم يغفر لي ثلاثاً ، ثم قضى . وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه ، فيبقى في البيت أياماً يعاد ، يحسبونه مريضاً ، وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء ، وقال له ابن عباس : مصّر الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل . فقال : وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر .

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته . وقال : لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لأخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

وهذا عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه . وكان يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق : ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحد بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي يوم

القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرةً تعضد ، ووددت أني لم أُخلق . وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ، ومحرر يخدمنا ، وفضل عباءة ، وإني أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية ، فلمّا أتى على هذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . [الجاثية : ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح .

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح : وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي . وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخاري في صحيحه : « باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر » .

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلاّ خشيت أن كون مكذباً .

وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق .

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة . أنشدك الله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يعني في المنافقين ! فيقول : لا . ولا أزكى بعدك أحداً » .

فسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول : ليس مراده أني لا أبرىء غيرك من النفاق ، بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله صلى

الله عليه وسلم فأزكيه . قلت : وقريب من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب « سبقك بها عكاشة » ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب . وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم ، فكان الإمساك أولى ، والله أعلم .

فصل : ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الابدان

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته .

فمما ينبغي أن يعلم : أن الذنوب والمعاصي تضر ، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان ، على اختلاف درجاتها في الضرر . وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟ .

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ .

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبدل بالقرب بعداً ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحاً ، وبالجنة ناراً تلظى ، وبالإيمان كفراً ، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة ، وبرجل التسبيح والتقديس والتهليل رجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش . وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله غاية الهوان . وسقط من عينه غاية السقوط ، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ، ومقته أكبر المقت فأرداه . فصار قواداً لكل فاسق ومجرم . رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة . فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟ ! وما

الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية . ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم ، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟ .

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ .

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، فأهلكهم جميعاً ، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هي من الظالمين ببعيد ؟ .

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى ؟ .

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟ .

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ .

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً ؟ .

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟ .

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرّة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وَتَبَّرُوا ما عَلَوْا تتبيرا ؟ .

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات ، مرّة بالقتل والسّبي وخراب البلاد ، ومرّة بجور الملوك ، ومرّة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ، [الأعراف : ١٦٧] .

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم خدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : « لما فتحت قبرص فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي ، فقلت : يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال : ويحك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى » .

وقال علي بن الجعد : أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال : سمعت أبا البختري يقول : أخبرني من سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال : بلى . قلت : فكيف يصنع بأولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

وفي مراسيل الحسن عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالىء قراؤ ها أمراءها وما لم يزك صلحاؤ ها فجارها ، وما لم يهن خيارها أشرارها ، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، ثمّ ضربهم الله بالفاقة والفقر » .

وفي المسند من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وفيه أيضاً عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها . قلنا : يا رسول الله أمِنْ قِلّة منا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، تنزع المهابة من

قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت » .

وفي المسند من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عرِّج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ،وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبي يغترون ؟ وعليّ يجترئون ؟ فبي حلفت ، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال عليٌّ : « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة ، وهي خراب من الهدى ، علماؤهم شر من تحت أديم السماء ، منهم خرجت الفتنة ، وفيهم تعود » .

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : « إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » .

ومن مراسيل الحسن : « إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل ، وتحابوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا الأرحام ، لعنهم الله عز وجل عند ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : « كنت عاشر

عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال : يا معشر المهاجرين ، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، فلولا البهائم لم يمطروا ، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل لله عز وجل في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه النّاهي تعذيراً ، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه ، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس ، فلمّا رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكان يعتدون . والذي نفس محمد بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرنه على الحق أطراً . أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال : « أوحى الله إلى يوشع ابن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم. قال: يا رب ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم » .

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال : « بعث الله عز وجل ملكين الى قرية : أن دمراها بمن فيها ، فوجدا فيها رجلاً قائماً يصلي في مسجد ، فقالا : يا رب ، إن فيها عبدك فلاناً يصلي ، فقال الله عز وجل : دمراها ودمراه معهم ، فإنه ما تمعّر وجهه فيّ قط » .

وذكر الحميدي عن سفيان بن عُيينة قال: حدَّثني سفيان بن سعيد عن مسعود أن ملكاً أُمر أن يخسف بقرية ، فقال : يا رب ، إن فيها فلاناً العابد ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن به فابدأ ، فإنه لم يتمعّر وجهه فيَّ ساعة قط » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال : « لما أصاب داود الخطيئة قال : يا رب اغفر لي : قال : قد غفرت لك ، وألزمت عارها بني إسرائيل ، قال : يا رب ، كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحداً ، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري ؟ فأوحى الله إليه : إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك « أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر ، فقال لها الرجل : يا أُم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمور ، وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه ، فقال للأرض : تزلزلي بهم ، فإن تابوا ونزعوا ، وإلا هدمها عليهم . قال : يا أُم المؤمنين أعذاباً لهم ؟ قالت : بل موعظة ورحمة للمؤمنين ، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين . فقال أنس : ما سمعت حديثاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أشد فرحاً [به] مني بهذا الحديث » .

وذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً « أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، ثم قال : اسكني ، فإنه لم يأن لك بعدُ . ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه ، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر ابن الخطاب، فقال : أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه ، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أُساكنكم فيها أبداً » .

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا « أن الأرض تزلزلت على عهد عمر ، فضرب يده عليها وقال : مالك ؟ ومالكِ ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدَّثت أخبارها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق » .

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت : « زلزلت المدينة على عهد عمر ، فقال : يا

أيها الناس ما هذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم . لئن عادت لا أساكنكم فيها » .

وقال كعب : « إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فَرقا من الرّب جل جلاله أن يطلع عليها » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار « أما بعد ، فإن هذا الرَّجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا ، فمن كان عنده شيء فليتصدق به ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ، وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] وقولوا كما قال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ، وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين ﴾ [الأعراف : ٢٣] وقولوا كما قال نوح : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِن الخاسِرِين ﴾ [هود : ٤٧] وقولوا كما قال يونس : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْت ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذَا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم وتبايعوا بالعِينَة ، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم » رواه أبو داود بإسناد حسن .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال : لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذَا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم ، وتبايعوا بالعِينة ، وتركوا الجهاد في سَبيل الله ، وأخذوا أذناب البقر ، أنزل الله عليهم من السماء بلاء ، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » .

وقال الحسن : « إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس » .

ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُختنصَّر فقال : « بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا » .

وقال بختنصر لدانيال : ما الذي سلطني على قومك ؟ قال « عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال وأعقم أرحام النساء ، فتنزل النقمة ، وليس فيهم مرحوم » .

وذكر عن مالك بن دينار قال : قرأت في الحكمة : يقول الله عز وجل : « أنا الله مالك الملوك . قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عَليكم » .

ومن مراسيل الحسن « إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم ، وفيئهم عند سُمحائهم ، وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم ، وفيئهم عند بخلائهم » .

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال : قال موسى « يا رب ، أنت في السماء ، ونحن في الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ قال : إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني » .

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه « والذي نفسي بيده ، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أُمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعواناً خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها ، والذي نفس محمد بيده لَيُنقضَن الإسلام عروة

عروة ، حتى لا يقال الله الله . لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمُرنَّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم » .

وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما طفف قوم كيلا ، ولا بخسوا ميزاناً : إلا منعهم الله عز وجل القطر ، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر في قوم الرّبا إلا سلط الله عليهم الجنون ، ولا ظهر في قوم القتل - يقتل بعضهم بعضاً - إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف ، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به .

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قال : « دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حفزه النفس ، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء ، فما تكلم حتى توضأ ، وخرج ، فلصقت بالحجرة . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، وتسألوني فلا أُعطيكم » .

وقال العمري الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ، ولا تأمر فيه ، ولا تنهى عنه ، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً .

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ بحقه .

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال : قال أبو بكر الصديق « أيها الناس ، إنكم تتلون هذه الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥]

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ـ وفي لفظ : إذا رأوا المنكر فلم يغيره ـ أوشك أن يعُمّهم الله بعقاب من عنده » .

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغير ضرّت العامة » .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب « توشك القرى أن تخرب وهي عامرة ؟ قيل : وكيف تخرب وهي عامرة ؟ قال : إذا علا فجّارُها أبرارها ، وساد القبيلة منافقوها » .

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « سيظهر شرار أُمتي على خيارها ، حتى يستخفي المؤمن فيهم ، كما يستخفي المنافق فينا اليوم » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال « يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء . قيل : مم ذاك يا رسول الله ؟ قال : مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره » .

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » .

وفي صحيح البخاري عن أُسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرّجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون : أيْ فلانُ ، مَا شَأْنك ؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : بلى ، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال : « كان حبر من أحبار بني إسرائيلْ

يغشى منزله الرجال والنساء ، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله ، فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء ، فقال : مهلاً يا بني [مهلاً يا بني] . فسقط من سريره ، فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقتل بنوه ، فأوحى الله إلى نبيهم : أن أخبر فلاناً الخبر : أني لا أخرج من صلبك صدِّيقاً أبداً ، ما كان غضبك لي إلا أن قلت : مهلاً يا بني » .

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فَلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها » .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات » .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عُذبت امرأة في هِرّة ، سجنتها حتى ماتت ، فدخلت النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له : في يوم وحد تركتْ بنو إسرائيل دينهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه ، وإذا نهوا عن شيء ركبوه ، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه » .

ومن ههنا قال بعض السلف : المعاصي بريد الكفر ، كما أن القُبلة بريد الجماع ، والغناء بريد الزنا ، والنظر بريد العشق ، والمرض بريد الموت .

وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال : « يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته ، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال ـ وأنت على الذنب ـ أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لا تدري ما الله

صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب ، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله ؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه ، فلم يعنه ؛ ولم ينه الظالم عن ظلمه ، فابتلاه الله » .

قال الإمام أحمد : حدّثنا الوليد قال : سمعت الأوزاعي يقول : سمعت بلال بن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت » .

وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله .

وقيل : أوحى الله إلى موسى ، يا موسى إن أول من مات من خلقي أبليس ، وذلك أنه عصاني ، وإنما أعد من عصاني من الأموات .

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب [ذنباً] نُكِت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، حتى تعلو قلبه . فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وقال حذيفة : « إذا أذنب العبد [ذنباً] نُكِت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبداء » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدَّثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما بعد يا معشر قريش ، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله ، فإذا عصيتموه

بعث عليكم من يلحاكم كما يلحَى هذا القضيب بقضيب في يده ، ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يَصْلد » .

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال : إن الرّب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل « إني إذا أُطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عُصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد .

وذكر أيضاً عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال : كتبت عائشة إلى معاوية « أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامّاً » .

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الْجَعد عن أبي الدرداء قال « ليحذر آمرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ، ثم قال : تدري مم هذا ؟ قلت : لا ، قال : إن العبد يخلو بمعاصي الله ، فيُلقي الله بُغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر » .

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين : أنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك ، فقال : إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة .

وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب ، وهي أنهم لا يرون تأْثيره في الحال ، وقد يتأخر تأْثيره فينسى ، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك ، وأن الأمر كما قال القائل :

إذا لم يغير حائط في وقوعه ... فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزالت من نعمة ؟ وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء ، فضلاً عن الجهال ! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمِل على الغش والدَّغل .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء « آعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدوا أنفسكم في الموتى ، وآعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم ، وآعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنسى » .

ونظر بعض العبّاد إلى صبي فتأمل محاسنه ، فأتى في منامه وقيل له : لتجدن غِبَّها بعد أربعين سنة .

وهذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه ، قال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مَذلته .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : عجبت من ذي عقل يقول في دعائه : اللّهم لا تشمّت بي الأعداء ، ثمّ هو يشمّت بنفسه كل عدو له ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يعصي الله ويشمت به في القيامة كل عدو .

وقال ذو النون : من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية .

فصل : من الآثار المذمومة (المعاصي)

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفيء ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته . وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها : حرمان الرزق . وفي المسند «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقد

تقدم - وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ، فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي .

ومنها : وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً . ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة . وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها .

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه ، فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس
وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب. فالله المستعان

ومنها : الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بَعُد منهم ومن مجالستهم ، وحُرم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه .

وقال بعض السلف : إني لأعصى الله فأرى ذلك في خُلق دابتي وامرأتي .

ومنها : تعسير أموره عليه ، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، ويالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتي ؟ .

ومنها : ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم ادلهَمَّ ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته ، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده . وتقوى هذه

الظلمة حتى تظهر في العين ، ثمّ تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : « إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق »

ومنها : أن المعاصي توهن القلب والبدن ، أما وَهَنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه ، وكلما قوي قلبه قوي بدنه . وأما الفاجر فإنه ـ وإن كان قوي البدن ـ فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوّته أحوج ما يكون إلى نفسه . وتأمل قوّة أبدان فارس والرّوم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ .

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أُخرى ، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ، ثمّ رابعة وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدّة أكلات أطيب منها ، والله المستعان .

ومنها : أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد ، فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر .

وقد اختلف الناس في هذا الموضع .

فقالت طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه . وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه البركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالـوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاءِ الرّب عزَّ وجل ، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب . ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ فالحياة في الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلاَّ أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطّاعة تزيده في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [النازعات : ٢٤] . فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا ، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلاً ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيقي من عمره .

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

فصل : توالد المعاصي

ومنها : أن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملني أيضاً ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك ، وهلم جرا ، فتضاعف الرّبح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك جانب السيئات أيضاً ، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة

لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحُبت ، وأحسّ من نفسه بأنه كالحوت إذ فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطّاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذّة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هاني حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر :

فكانت دوائي ، وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطّاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزاً ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشّياطين فتؤزه إليها أزّاً ، فالأول قوي جند الطّاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر أعوانه . وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه .

فصل : المعصية تضعف إرادة الخير

ومنها ـ وهو من أخوفها على العبد ـ أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكليّة فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذّابين باللّسان بشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصِرٌّ عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه . وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

فصل : إلف المعصية

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللّذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه

عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، ويسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب . كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ أُمَّتي معافى إلاَّ المُجَاهِرُونَ ، وَإنَّ مِنَ الإجْهَارِ : أَنْ يَستر الله الْعَبْدَ ثُمَّ يصْبح يَفْضح نفْسه وَيَقُول : يَا فُلاَن عَمِلتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ، فهتكَ نَفْسَهُ ، وَقَد بَاتَ يَسْتُرُه رَبُّه » .

ومنها : أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عزّ وجل ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون ، والتكبّر والتجبّر ميراث عن قوم هود ، فالعاصي لابس ثيابَ بعضِ هذه الأمم، وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزُّهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أُوحى الله إلى نبيّ من أنبياءِ بني إسرائيل أن قل لقومك : لا يدخلوا مداخل أعدائي ، ولا يلبسوا ملابس أعدائي ، ولا يركبوا مراكب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي » .

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : قال : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَي السَّاعة ، حَتَّى يُعْبَدُ الله وَحْدَه لاَ شَرِيكَ له ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجَعَلَ الذِّلَّةَ وَالصغار عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

فصل : هوان العاصي على ربه

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه . قال الحسن البصري : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزُّوا عليه لعصمهم . وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفاً من شرها ، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه . وذلك علامة الهلاك ، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار » .

فصل : شؤم الذنوب

ومنها : أن غيره من الناس والدّواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم .

قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم .

وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة ، وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم .

وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون : منعنا القطر بذنوب بني آدم .

فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلعنه من لا ذنب له .

فصل : المعصية تورث الذل

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد ، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر : ١٠] أي فليطلبها بطاعة الله ، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله .

وكان من دعاءِ بعض السّلف : اللّهُمَّ أَعِزّني بِطَاعَتِكَ ، وَلاَ تَذِلَّني بِمَعْصِيَتِكَ .

وقال الحسن البصري : إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إنَّ

ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبىٰ الله إلاَّ أنْ يُذِلَّ من عَصَاه .

وقال عبد الله بن المبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وقدْ يُورث الذُّل إدْمَانها
وترك الذُّنوب حياة القلوب ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانها
وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلاَّ المُلُوك ... وَأَحْبَار سُوءٍ وَرُهْبَانها ؟

ومنها : أن المعاصي تفسد العقل ، فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفىء نور العقل ولا بد ، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص .

فصل : المعاصى تفسد العقل

وقال بعض السلف : ما عصىٰ الله أحدٌ حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرّب تعالى ، أو تحت قهره ، وهو مُطّلع عليه ، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السُّرور واللّذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟ .

فصل : الذنوب تطبع على القلب

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين كما قال بعض السَّلف في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] قال : هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً . ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً . فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فإذا

حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاّه عدوه ويسوقه حيث أراد .

فصل : الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسوا الله ﷺ

ومنها : أن الذّنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لعن على معاصي والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصلة والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة ، ولعن آكل الرِّبا ومؤكله ، وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلِّل والمحلَّل له ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه . ولعن مَن غيّر منار الأرض وهي أعلامها وحدودها ، ولعن مَن لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، ولعن المصورين ، ولعن من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط . ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من وسم دابة في وجهها ، ولعن من ضار مسلماً أو مكر به ، ولعن زَوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج ، ولعن من أفسد آمرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده ، ولعن من أتى آمرأة في دبرها ، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة بإن الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة .

وقد لعن الله [في كتابه] من أفسد في الأرض وقطع رحمه ، وآذاه وآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البيِّنات والهدى .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين

ولعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الرجلَ يلبس لِبسة المرأة ، والمرأة تلبس لِبسة الرجل، ولعن الراشي والمرتشي والرائش ـ وهو الواسطة في الرشوة ـ ولعن على أشياء أُخر غير هذه .

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه .

فصل : حرمان دعوة رسول الله

ومنها : حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الملائكة ، فإن الله سُبحانه أمر نبيّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ومنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهم وَمَنْ صَلح مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ ـ ٩] .

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما ، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .

فصل : ما رآه الرسول ﷺ من عقوبات العصاه

ومن عقوبات المعاصي ، ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سُمرة بن جُندب قال : « كان النبيّ صلىٰ الله عليه وسلّم مما يكثر أن يقول لأصحابه : هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ البَارِحَةَ رُؤْيا ؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص ، وإنه قال لنا ذات

غداة : إنه أتاني اللّيلة آتيان ، وإنهمـا انبعثا لي ، وإنهمـا قالا لي : انـطلق ، وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه ، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثمّ يعود عليه ، فيفعل به مثل ما فعل في المرّة الأولى . قال : قلت لهما : سُبحان الله ! ما هـذا ؟ قالا لي : آنـطلق . . آنطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلُوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقّيْ وجهه ويشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثمّ يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذُلك الجانب كما كان . ثمّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرّة الأولى . قـال : قلت : سبحان الله ! مـا هذان ؟ فقـالا لي : انـطلق . . انـطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنُور ، فإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلعنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عـراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفـل منها ، فـإذا أتاهم ذُلـك اللّهب ضَوْضوا . فقال : قلت لهم : ما هٰؤلاء ؟ قالا لي : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدّم ، فإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النّهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذُلِكَ السّابح يسبح ما شاء الله أن يسبح ، ثمّ يأتي ذُلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً ، فينطلق فيسبح ، ثمّ يرجع إليه ، كلما رجع إليه ففغر له فاه ، فيلقمه حجراً ، قلت لهما : ما هذان ؟ قالا لي : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المَرآة أو كأكره ما أنت راءٍ رجل مرأى ، وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها ، قال قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لي : انطلق . . انطلق ، انطلقنا حتى أتينا على روضة مُعتمة ، فيها من كـل نور

الرّبيع ، وإذا بين ظهراني الرّوضة رجل طويل ، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ، وإذا حول الرّجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ، قال : قلت : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟ قال : قالا لي : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أرَ دوحة قط أعظم منها ولا أحسن ، قال : قالا لي : ارق فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، قال : فأتينا باب المدينة ، فاستفتحنا ، ففتح لنا فدخلناها ، فتلقانا رجال شطر من خَلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر منهم كأقبح ما أنت راءٍ ، قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثمّ رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، قال : قالا لي : هذه جنة عدن ، وها ذاك منزلك ، قال : فسما بصري صعداً ، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء ، قال : قالا لي : هذا منزلك ، قلت لهما : بارك الله فيكما فذراني فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله ، قلت لهما : فإني رأيت منذ اللّيلة عجباً ، فما هذا الذي رأيت ؟ قال : قالا لي : أما إنا سنخبرك :

أما الرّجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن ، فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرّجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرّجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرّجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزواني .

وأما الرّجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ، ويلقم الحجارة ، فإنه آكل الرّبا .

وأما الرّجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرّجل الطويل الذي في الروضة ، فإنه إبراهيم .

وأما الولدان الذين حوله ، فكل مولود مات على الفطرة ـ وفي رواية البرقاني : ولد على الفطرة ـ فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا شَطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .

فصل : الذنوب تجلب الفساد في الأرض

ومن آثار الذنوب والمعاصي : أنها تُحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء ، والزروع والثمار ، والمساكن . قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الرُّوم : ٤١] .

قال مجاهد : إذا ولي الظالم سعى بالظلم [والفساد] فيحبس الله بذلك القطرَ فيُهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . ثمّ قرأ : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ فِي البَرّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أَيْدِي الناس لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجعون ﴾ ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جارٍ فهو بحر . وقال عكرمة : ظهر الفساد في البر والبحر ، أما إني لا أقول لكم : بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماءٍ . وقال قتادة : أما البر فأهل العمود ، وأما البحر فأهل القرى والرّيف .

قلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، [فاطر : ١٢] وليس في العالم بحر حلو واقف ، وإنما هي الأنهار جارية ، والبحر المالح هو الساكن ، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه . وقال ابن زيد : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في الْبَرِّ وَالبَحْرِ ﴾ قال : الذنوب .

قلت : أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر

هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ لام العاقبة والتعليل . وعلى الأول : فالمراد بالفساد ، النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظّاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به الذُّنوب وموجباتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ فهذا حالنا . وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها، . وقد مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود ، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ، ومن شُرب مياههم ، ومن الاستسقاء من آبارهم ، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح لتأثير شؤم المعصية في الماء ، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال : « وجد في خزائن بني أمية : حبة حنطة بقدر نواة التمرة ، وهي في صرّة مكتوب عليها : هذا كان ينبت في زمن العدل » وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب .

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن ، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها ، وإنما حدثت من قرب .

وأما تأثير الذُّنوب في الصّور والخلق ، فقد روى الترمذي في جامعه عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاء سِتُّونَ ذِراعاً ، فَلَمْ يزَل الْخَلقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآن » فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة ، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلّم فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت

جوراً ، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركتها ، وتعود كما كانت ، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس ، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذّنوب والكفر ، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقت آثارها سارية في الأرض ، تطلب ما يشاكلها من الذّنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات ، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم ، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخراً ، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء .

وتأمّل مقارنة الشيطان ومحله وداره ، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره ، وعمله ، وقوله ، ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرتنزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرّحمة والبركة .

فصل : الذنوب تطفيء الغيرة

ومن عقوبات الذنوب : أنها تطفيء من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصّفات المذمومة ، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم همّة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس . ولهذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم أغير الخلق على الأمة ، والله سبحانه أشد غيرة منه ، كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْد ؟ لأنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي » .

وفي الصحيح أيضاً أنه قال في خطبة الكسوف : « يا أُمَّةَ مُحَمَّد مَا أحدٌ أغْيَر مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْني عَبْدُهُ أَوْ تَزْني أَمَتُهُ » .

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال : « لاَ أحَدٌ أغْيَرُ مِنَ الله ، مِنْ أجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظهرَ مِنْهَا ومَا بَطَنْ ، وَلاَ أَحَدٌ أَحَبُّ إلَيْهِ العُذرمِن الله ، مِنْ أجْلِ ذٰلِكَ أرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِين وَمُنْذِرين ، ولاَ أَحَدٌ أَحَبُّ إلَيْهِ المَدْح مِنَ الله ، مِن أجْلِ ذٰلِكَ أثنى عَلَىٰ نَفْسِهِ » فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها ، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرّحمة والإحسان ، والله سبحانـه ـ مع شـدة غيرته ـ يجب أن يعتذر إليه عبده ، ويقبل عذر من اعتذر إليه ، وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم ، ولأجل ذٰلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً ، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال ، فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، .ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه ، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلّةِ الغيرة حتى يتوسع في طـرق المعاذير ، ويرى عذراً ما ليس بعذر ، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر ، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق .

وقد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « إنَّ مِنَ الغِيرَةِ مَا يُحِبُّها الله ، وَمِنْهَا مَا يَبْغَضُهُ الله ، فالَّتي يَبْغَضُهَا الله الغِيرَة فِي غَيْرِ رِيْبَةٍ » وذكر الحديث .

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر ، فيغار في محل الغيرة ، ويعذر في موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً .

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له ، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته ، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها ، وأدخلته على ربه ، وأدنته وقرّبته من رحمته، وصيّرته محبوباً له ،

فإنّه سبحانه رحيم يُحب الرّحماء ، كريم يُحب الكُرماء ، عَليم يُحب العُلماء ، قوي يُحب المؤمن القوي ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حيٌّ يُحب أهل الحياء ، جَميل يُحب أهل الجمال ، وتر يُحب أهل الوتر .

ولو لم يكن في الذُّنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، فالإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلاً ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة . وحينئذ يتعذر الخروج منها ، كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به .

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس . وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك . وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح ، بل يحسّن الفواحش والظلم لغيره ، ويزينه له ، ويدعوه إليه ، ويحثه عليه ، ويسعى له في تحصيله . ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله ، والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له . فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدُلُّك على أن أصل الدين الغيرة ، ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع البتة . ومثل الغيرة في القلب مثل القوّة التي تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وَجد الدّاء المحلَّ قابلاً ، ولم يَجد دافعاً ، فتمكن فكان الهلاك .

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع بها عن نفسه وولده ، فإذا كُسرت طمع فيه عدوّه .

فصل : المعاصي تذهب

ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحَياءُ خيْر كلُّه » .

وقال : « إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاس مِنَ الكلاَم النُّبُوَّة الأُولى : إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » . وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها . وهذا تفسير أبي عُبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستح من الله فافعله ، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيى منه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانىء .

فعلى الأول يكون تهديداً ، كقوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصّلت : ٤٠] وعلى الثاني يكون إذناً وإباحة .

فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟ .

قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .

والمقصود أن الذُّنوب تضعف الحياءَ من العبد ، حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع .

وَإذا رَأىٰ إبْلِيسُ طَلعـةَ وَجْهِـهِ ... حَيَّـا وقـالَ : فَـدَيْتَ مَنْ لاَ يفْلَح

والحياءُ مشتق من الحياة ، والغيث يسمى حيا ـ بالقصر ـ لأن به حيـاة الأرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه [فهو] ميت في الدنيا شقي في الآخرة ، وبين الذُّنوب وبين قِلَّة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثاً ، ومن استحيي من الله عند معصيته استحيي الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستحِ من معصيته لم يستح من عقوبته

فصل : المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب

ومن عقوبات الذُّنوب : أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جـلَّ جلاله ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بـد ، شاء أم أبى . ولـو تمكَّن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تَجرَّأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر ، وقال : إنما يحملني على المعاصي حسن الرّجاء ، وطَمعي في عَفوه ، لا ضعف عظمته في قلبي ، وهذا من مغالطة النفس ، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد [تقتضي تعظيم حرماته] وتعظيم حرماته تحولُ بينه وبين الذُّنوب ، والمتجرِّئون على معاصيه ما قَدَّروا الله حقَّ قدره ، وكيف يقدِّره حقَّ قدره ، أو يعظِّمه ويكبِّره ، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه ؟ هذا من أمحل المحـال ، وأبين الباطـل . وكفى بالمعـاصي عقوبـة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جلّ جلاله ، وتعظيم حرماته ، ويهون عليه حقه .

ومن بعض عقوبة هذا : أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ، ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبّة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق ، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس ، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته ؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق ؟ .

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذُّنوب ، وأنه أرْكس أربابها

بما كسبوا ، وغطى على قلوبهم ، فطبع عليها بـذنوبهم ، وأنـه نسيهم كما نسـوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه ، وضيعهم كما ضيعوا أمره ، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] فإنهم لما هـان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله ، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله ، ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهين من أكرمه الله ؟ .

فصل : المعاصي تنسي الله جل جلاله عبده

ومن عقوباتها : أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه ، وتخليته بينـه وبين نفسـه وشيطانه ، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة ، قال الله تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَـاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٨ ـ ١٩] فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أي أنساه مصالحها ، وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية ، وكمال لذّتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه ، والقيام بأمره ، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه ، مضيعاً لها ، وقد أغفل قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أُمره فرطاً ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته ، وقد فرط في سعادته الأبدية ، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة ، إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف ، كما قيل :

أحـلام نـوم ، أو كـظل زائـل   إن اللّبيـب بمـثلهـا لا يُـخـدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه ، وإهماله لها ، وإضاعته حظها ونصيبها من الله ، وبيعه ذُلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن ، فضيع من لا غنى له عنـه ، ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض :

من كـل شيء إذا ضيعته عـوض   ومـا من الله إن ضيعتـه عـوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض كل ما سواه ولا يعوض منه شيء ، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء ، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء ، ويمنع من كل شيء ، ولا يمنع منه شيء ، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه ، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه .

فصل : المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين ، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي ، فإن من عبدَ الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية . فضلاً عن مواقعتها ، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقته الخاصة ، وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيراً أقرّه في دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، ولَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَة ذَاتَ شَرف يَرفع إِلَيْهِ فِيهَا النَّاس أبْصَارهم حينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فإياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد .

فصل : العاصي يفوته ثواب المؤمن

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان ، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الأجر العظيم : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِى الله الْمُؤْمِنِين أَجْراً عَظِيماً ﴾

[النساء : ١٤٦] ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] .

ومنها استغفار الملائكة حملة العرش لهم : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] .

ومنها موالاة الله لهم ، ولا يذل مَنْ مولاه الله ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ومنها : أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم .

ومنها العزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ومنها معيّة الله لأهل الإيمان : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ومنها : إعطاؤهم كِفلَيْن من رحمته . وإعطاؤهم نوراً يمشون به ، ومغفرة ذنوبهم .

ومنها : الود الذي يجعله الله سبحانه لهم ، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

ومنها : أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

ومنها : أنعم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرّة .

ومنها أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وشِفاء ، وَالَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ، أُولئِكَ يُنَادَونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٤] .

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان . [وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان] فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه ، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين ؟ فإن استمر على الذُّنوب وأصرَّ عليها خيف عليه أن يَرِين على قلبه ، فيخرجه عن الإسلام بالكلية . ومن ههنا اشتد خوف السَّلف ، كما قال بعضهم : أنتم تخافون الذُّنوب ، وأنا أخاف الكفر .

فصل : المعاصي تضعف القلب

ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوِّقه أو توقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير الى الله بقوته فإذا مرض بالذُّنوب ضعفت تلك القوّة التي تُسَيِّره ، فإن زالت بالكليّة انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه ، والله المستعان .

فالذَّنب إما أن يُميت القلب ، أو يمرضه مرضاً مخوفاً ، أو يُضعف قُوته ولا بد ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبيّ صلى الله عليه وسلَّم وهي : « الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدَّين وغلبة الرِّجال » وكل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم . وإن كان من أمرٍ ماض قد وقع أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

والجبن والبخل قرينان ، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن ، وإن كان بماله فهو البخل .

وَضَلع الدَّين وقهر الرِّجال قرينان ، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدَّين ، وإن كان بباطل فهو قهر الرِّجال .

والمقصود أن الذُّنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة : « لجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » . ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله ، وتحوّل عافيته إلى نقمته ، وتجلب جمع سخطه .

فصل : الذنوب تزيل النعم

ومن عقوبات الذُّنوب : أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلّا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب . كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

فأخبر الله تعالى أنه لا يغيّر نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ،

فإذا غير غُير عليه ، جزاء وفاقاً ، وما ربُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد . فإن غيَّر المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعز . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَه ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال ﴾ [الرعد : ١١] .

وفي بعض الآثار الإلهية ، عن الرّب تبارك وتعالى أنه قال : « وَعِزَّتي وَجَلَالِي لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أَكْرَهُ ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَىٰ مَا يَكْرَه ، وَلَا يَكُونَ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدي عَلَىٰ مَا أَكْرَه ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أُحِبُّ إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَه إِلَى مَا يُحِبُّ » .

ولقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارْعها ... فإن الذُّنوب تزيل النعم
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ، ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر ... من الظلم وهو الذي قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور ، وأُخرى عليهم أطم
صَلُوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذي نالهم كالحلم

فصل : المعاصي تلقي الخوف والرعب في القلب

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله سبحانه من الرّعب والخوف في قلب العاصي ، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً ، فإن الطّاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان

من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة ، ومن خرج عنه أحاطت بـه المخاوف من كـل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمـاناً ، ومن عصـاه انقلبت مآمنـه مخاوف ، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر ، إن حركت الرّيح الباب قال : جاءَ الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب ، يحسب أن كل صيحة عليه ، وكل مكروه قاصداً إليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء :

بـذا قضى الله بين النـاس مـذ خلقـوا　　أن الـمـخـاوف والإجـرام فـي قـرن

ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العـظيمة في القلب ، فيجـد المذنبُ نفسـه مستوحشاً ، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبين نفسه ، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة ، وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأْنسين ، فلو نظر العاقل ووازن لذّة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوءَ حاله وعظيم غبنه ، إذ باع أُنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له ، كما قيل :

فـإن كنت قد أوحشتـك الذنـوب　　فـدعـهـا إذا شئت واستـأْنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرّب سبحانه ، فكلما اشتد القرب قوي الأُنس ، والمعصية توجب العبد من الرّب ، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما ، وإن كان ملابساً له قريباً منه ، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيداً عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ، فـالغفلة توجب الـوحشة ، وأشـد منها وحشة المعصية وأشد منها وحشة الشرك والكفر ، ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه ، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه .

فصل : المعاصي تمرض القلب

ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ، فلا يزل مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه ، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها إلا تركها . وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطي مناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهواها مرضها ، وشفاها مخالفته ، فإن استحكم المرض قتل أو كاد وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً ألبتة ، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا . ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك ـ أعني دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ـ فهؤلاء في نعيم ، وهؤلاء في جحيم ، وهل النعيم إلاّ نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ، وانقطاعه عن الله ، بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار . فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه ، وأنواع (من العذاب في هذه) المعارضات فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار .

وأما في البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوان والديدان

في أبدانهم ، بل عملها في النفوس دائم مستمر ، حتى يردَّها الله إلى أجسادها ، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه : واطرباه . ويقول الآخر : إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال ، إنهم لفي عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدُّنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها . ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن في هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين .

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بعتها بغاية الهوان . كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه ... فمن ذا له من بعد ذلك يكرم ؟

﴿ وَمَنْ يُهِنْ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

فصل : المعاصى تعمى البصيرة

ومن عقوباتها : أنها تعمي بصيرة القلب ، وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية .

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم . فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره ، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ، ويا سرعة العطب . ثم تقوى تلك

الظلمات ، وتفيض من القلب إلى الجوارح ، فيغشى الوجه منها سواد ، بحسب قوّتها وتزايدها ، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ ، فامتلأ القبر ظلمة ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وإن الله منورها بصلاتي عليهم » فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد ، حتى يصير الوجه أسود مثل الحَمَمَة فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى أخرها ، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن ؟ إنما هو ساعة من حلم ! فالله المستعان .

فصل : المعاصى تصغر النفوس

ومن عقوباتها : أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها حتى تكون أصغر من كل شيء وأحقره كما أنَّ الطَّاعة تنمِّيها وتزكِّيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها ﴾ [الشمس : ١٠٩] والمعنى : قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله .

وأصل التدسية : الإخفاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، [النحل : ٥٩] . فالعاصي يدس نفسه في المعصية ، ويخفي مكانها ، يتوارى من الخلق من سوءِ ما يأتي به ، قد انقمع عنه نفسه ، وانقمع عند الله ، وانقمع عند الخلق ، فالطَّاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها ، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى ، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو ، فما صغر النفوس مثل معصية الله ، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

فصل : المعاصى فى سجن الشيطان

ومن عقوباتها : أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه ، فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسيرَ أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى

عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة ، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة ؟ .

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده . ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعُد عن الآفات ، وكلما نزل احتوشته الآفات ، وفي الحديث « الشيطان ذئب الإنسان » وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب ، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتّقوى ، فهي وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدُّنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الرّاعي كانت أقرب إلى الاهلاك ، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي ، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم ، وهي أبعد من الرّاعي .

وأصل هذا كله : أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب ، بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد القلب عن الله ، وبُعد المعصية أعظم من بُعد الغفلة ، وبُعد البدعة أعظم من بُعد المعصية ، وبُعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله .

فصل : المعاصي تسقط الكرامة

ومن عقوباتها : سقط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده ، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه . فأسقطه من قلوب عباده ، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوأ عيش : خامل الذكر ، ساقط القدر ، زريّ الحال ، لا حرمة له ، ولا فرح له ولا سرور ، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ؟

ومن أعظم نعم الله على العبد : أن يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلي قدره ، ولهذا خصّ أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ، [ص : ٤٥ ، ٤٧] أي خصصناهم بخصيصة ، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيّه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلنا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : ٥] . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، [الشرح : ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم ، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

فصل : المعاصي مجلبة للذم

ومن عقوباتها : أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف ، وتكسوه أسماء الذم والصغار ، فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقي ، والمطيع ، والمنيب ، والولي ، والورع ، والصالح ، والعابد ، والخائف ، والأوّاب ، والطيب ، والمرضي ونحوها . وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصي ، والمخالف ، والمسيء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزاني ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطي ، وقاطع الرّحم ، والغادر وأمثالها ، فهذه أسماء الفسوق و ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ ﴾ [الحجرات : ٦١] الذي يوجب غضب الدَّيان ، ودخول النيران ، وعيش الخزي والهوان . وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ، ودخول الجنان ، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان ، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا مقرب لما باعد ، ولا مبعد لمن قرب ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكرِمٍ ، إِنَّ الله يَفْعَلُ ما يَشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

فصل : المعاصي تؤثر في العقل

ومن عقوباتها : أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مُطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسدُّ ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ١٠٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولِي الأَلْبَابُ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ونظائر ذلك كثيرة .

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي مَنْ هو في قبضته وفي داره ، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده ؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له ، وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه روح رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة ، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية .

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن ، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون .

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللَّذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه ، والألم والعذاب كله في

سخطه وغضبه ، ففي رضاه قرّة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُون فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُون كَمَا تَأْلَمُون ، وَتَرْجُون مِنَ الله مَا لاَ يَرْجُون ﴾ [النساء : ١٠٤] فلا إله إلا الله ، ما أنقص عقل من باع الدُّرَّ بالبعر ، والمسك بالرَّجيع ، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً .

فصل : المعصية توجب القطيعة بين العبد والرب

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأيُّ فلاح ، وأيُّ رجاء ، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرْفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِين بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً له وتشريفاً ، فأطاعوني وأبى عدوي

وعدوه ، فعصى أمري ، وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، فتطيعونه في معصيتي ، وتوالونه في خلاف مرضاتي ، وهم أعدى عدو لكم ؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له ، فهذا محل ، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم ، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب ؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه ؟ ونبّه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ كما نبّه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاة ؟ وما هذا الاستبدال ؟ بئس للظالمين بدلاً .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي ، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة .

فصل : المعاصي تمحق البركة

ومن عقوباتها : أنها تمحق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة .

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا ، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ، لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦ ، ١٧] وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفي الحديث « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل

رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وإن الله جعل الرَّوْح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد « أنا الله ، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى ، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد » وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه .

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته ، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحي الذي لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ؟ .

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل ، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها ، فسلطانه عليهم ، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع ، لما في مقارنة اسم الله من البركة ، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ، ولا معارض له ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ،

فإن الربّ هو الذي يبارك وحده ، والبركة كلها منه ، وكل ما نسب إليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه ، فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه ، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه ، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ، ولا خير فيه ، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه .

وضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة ، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به ، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل ، وكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عُصي الله به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ، ليس له ، فليس [له من] عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به .

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم .

وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه ، وعالم أو متعلم » .

وفي أثر آخر « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله » فهذا هو الذي فيه البركة خاصة . والله المستعان .

فصل : المعاصي تجعل صاحبها من السفلة

ومن عقوباتها : أنها تجعل صاحبها من السّفلة بعد أن كان مهيئاً لأن يكون من العِلية ، فإن الله خلق خلقه قسمين : عِلْية ، وسِفلة ، وجعل عليين

مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء ، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري » فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة ، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين .

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه ، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله . فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس .

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم ، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ومما بين السماء والأرض ، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد ، كما في الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب »

فأي صعود يوازي هذه المنزلة ؟ والنزول أمر لازم للإنسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته ، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته .

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة ، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته ، وقد لا يصل إليها ، وقد يرتفع عنها ، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون أضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت .

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية إما صغيرة أو كبيرة ، فهذا قد يحتاج في عَودة إلى توبة نَصوح ، وإنابة صادقة .

واختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة . وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها .

قالوا : وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول ، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بَون عظيم .

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سُلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً مقبولا ، فقال : مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العُجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خدَّ ضراعته وذُله وانكساره على عَتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده (ومولاه) له ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ (أو يتكبر) بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرّأس بين يدي ربه ، مستحيياً منه خائفاً وجلاً ، محتقراً لطاعته ، مستعظماً لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء . كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالـ حمد ، وولّى الملامة الرجلا

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلا . وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذا لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه ، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه ، الكبير الذي لا شيء أكبر منه ، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها ـ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرّذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ، وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ، وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر : ٤١] .

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم ، والغفور » كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ؟ .

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] .

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالفا فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب (واحد) ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

نصل الذُّنوب إلى الذنوب ، ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوته الأعلى بذنب واحد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ؛ فلا يقوى دواء التوبة إعادته إلى الصحة الأُولى ، فلا يعود إلى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية ، فإن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه ، مثل الشكوك والرّيب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه .

فصل : المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه

ومن عقوباتها : أنها تجتريء على العبد من لم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات فتجتريء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرّته في نسيانه ، فتجتريء عليه الشياطين حتى تَؤُزّه إلى معصية الله أزًّا ، وتجتريء عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره ، ويجتريء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم .

قال بعض السلف : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خُلق امرأتي ودابتي. وكذلك يجتريء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله ، وتجتريء عليه نفسه فتتأسد عليه وتستضعف عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له ، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه ، شاء أم أبى ، وذلك أن الطاعة حصن الرّب تبارك وتعالى الذي منْ دخله كان من الآمنين ، فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس

لـه شيء يردُّ عنـه ، فإن ذِكـرُ الله وطاعتـه ، والصدقـة ، وإرشاد الجـاهل ، والأمـر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقايةٌ تردُّ عن العبد ، بمنزلة القوة التي تردُّ المرض وتقاومه.فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك ، فلا بد للعبد من شيء يردُّ عنه ، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع ، ويكون الحكم للغالب كما تقـدم ، وكلما قوي جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، والإيمان قول وعمل ، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع ، والله المستعان .

فصل : المعصية تضعف العبد أمام نفسه

ومن عقوباتها : أنها تَخُون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه ، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته ، فاستعملها فيما ينفعه وكفَّها عمَّا يضرّه ، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما أن أسفههم من عكس الأمر ، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم ، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع ، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم ، وعن الاشتغال بما هو أولى بـه وأنفع لـه في الدارين ، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قِرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه ، فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه ، فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر بـه ، كذلـك القلب يصدأ بـالذنـوب ويصير مثخنـاً بالمرض . فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً ، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب ، فإذا لم يكن عند ملكها قوة بها فما الظن بها ؟ .

وكـذلك النفس فـإنها تخبث بـالشهـوات والمعـاصي وتضعف . أعني النفس المطمئنة ، وإن كانت الأمَّارة تقوي وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت تلك ، فيبقى

الحكم والتصرف للأمّارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه حياة ، فهذا ميت في الدنيا . ميت في البرزخ ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط .

والمقصود : أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر ، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إنْ ذَكر أو دَعا ذَكر بقلب لاه ساه غافل ، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك ، حتى قيل لبعضهم : قل « لَا إِلَهَ إِلَّا الله » فقال : آه آه ، لا أستطيع أن أقولها . وقيل لآخر : قل « لَا إله إلا الله » . فقال : شاه ، رُخ ، غلبتك ثم قضى ، وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فقال :

يا رُبَّ قائلة يوماً ، وقد تعبت : كيفَ الطريق إلى حمام منجابِ ؟

ثم قضى . وقيل لآخر : قل « لا إله إلا الله » فجعل يهذي بالغناء ، ويقول : تاتنا تنتنا ، حتى قضى . وقيل لآخر ذلك ، فقال : ما ينفعني ما تقول ، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك ، فقال : وما يغني عني وما أعرف أني صليت لله صلاة ؟ ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك ، فقال : هو كافر بما تقول ، وقضى .

وقيل لآخر ذلك ، فقال : كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها ، وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله فلس ، لله ، فلس لله ، حتى قضى . وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده ، وجعلوا يلقنونه « لا إله إلا الله » وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا ، حتى قضى .

وسبحان الله ! كم شاهد الناس من هذا عبراً ؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوّته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريده من معاصي الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى ، وعطل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ؟ وجمع الشيطان له كل قوّته وهمّته ، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال ، فمن ترى يَسلم على ذلك ؟ فهناك ﴿ يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِين وَيَفعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطا ؟ فبعيد من قلبه من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصيته ، أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيمانٌ عَلَينا بَالِغَةٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، إنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ؟ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ؟ ﴾ [القلم : ٣٩ ، ٤٠] كما قيل :

يا آمنا مع قبح الفعل منه أهل ... أتاك توقيع أمن أنت تملكه ؟
جمعت شيئين : أمناً ، واتباع هوى ... هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه

والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا ، وذلك درب لست تسلكه
فرّطت في الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في دار البقاء بعيش سوف تتركه
مَن السفيه إذاً بالله؟ أنتَ، أم الـ ـمغبون في البيع غبناً سوف تدركه ؟

فصل : المعاصي تعمي القلوب

ومن عقوباتها : أنها تعمي القلب ، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد ، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد ، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوّته .

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين ، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص : ٤٥] فالأيدي : القوى في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين ، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه ، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام ، فهؤلاءِ أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى .

القسم الثاني : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة (له) في الدين ، ولا قوة على تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق ، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح ، وسقم القلوب ، يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار .

القسم الثالث : من له بصيرة بالحق ومعرفة به ، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ، ولا الدعوة إليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه .

القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة ، لكنه ضعيف البصيرة في الدين ، يكاد يميز بين أولياء الرّحمن وأولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء

شَحمة، يحسب الوَرَم شحماً ، والدواء النافع سُما .

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنا لـمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾ [السجدة : ٢٤] فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الـدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين . وأقسم بالعصر ـ الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين ـ على أن من عداهم فهو من الخاسرين ، فقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ ـ ٣] ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصي بعضهم بعضاً به ، ويرشده إليه ، ويحضه عليه .

وإذا كان مَن عدا هؤلاءِ خاسراً ، فمعلوم أن المعاصي والذُّنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي ، وتضعف قوّته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره ، فيدرك سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فينتكس في سيره ، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة ، التي رضيت بـالحياة الدنيا ، واطمأنت لها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها ، والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنوِّر القلب وتجلوه وتصقله ، وتقويه وتثبته ، حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتليء نوراً ، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يَفْرُق من هذا القلب أشدَّ من فَرَق الذئب من الأسد ، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً ، فيجتمع عليه الشياطين ، فيقول بعضهم لبعض : ما شأنه ؟ فتقال : أصابه إنسي ، وبه نظرة من الإنس :

فيا نظرة من قلب حُرٍّ مُنَوَّرٍ يكاد لها الشيطان بالنور يُحرق

أفيستوي هذا القلب وقلبٌ مظلمة أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذه الشيطان وطنه وأعدَّه مسكنه ، إذا تصبَّح بطلعته حيَّاه ، وقال : فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أُخراه ؟ :

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء ، فإنني وأنت جميعاً في شقاً وهوان

قال الله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ ، حَتَّى إذا جَاءَنا قَالَ : يا ليتَ بَيْني وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشْرِقَيْنِ ، فَبِئْسَ القَرِينُ ، وَلَن يَنفعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ : ٣٩] .

فأخبر سبحانه أنه من عشا عن ذكره ، وهو كتابه الذي أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعمي عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ، قيض الله له شيطاناً ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في السير ، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير .

رضيعاً لبان ثدي أُم ، تقاسما بأسحم داج عوض ، لا يتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاءَ القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقَيْن ، فبئس القرين كنت لي في الدنيا ، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءَني ، وصددتني عن الحق وأغويتني ، حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لي اليوم .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل (له) بالتأسي نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في

العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، كما قالت الخنساء في أخيها صخر :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ، ولكن أُعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُم الْيَوْمَ إذْ ظَلَمْتم ، أَنَّكُم فِي العَذَاب مُشْتَرِكُون ﴾ .

فصل : المعاصي عدو لدود

ومن عقوباتها : أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه ، وجيش يقويه به على حربه ، ذلك أن الله سبحانه آبتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، ولا ينام عنه . ولا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه يبذل جهده في معاداته في كل حال ، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه ، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن ، وغيرهم من شياطين الإنس : فقد نصب له الحبائل ، وبغى له الغوائل ، ومد حوله الأشراك ، ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم ، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرّحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية ، إذ فاتتنا شركة صالحيهم في الجنة ، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا ، وأمرنا أن نأخذ له أهبته ، ونعد له عدته .

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بُلوا بهذا العدو وأنه قد سُلط عليهم أمَدَّهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمدّ عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها ، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر ، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنَفَس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فَيَقتلون ويُقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه ، وهي التوراة والإنجيل والقرآن ، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه

الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو ؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأي فوز أعظم من هذا ؟ وأي تجارة أربح منه ؟ .

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بقوله : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصَّف : ١٠ - ١٣] . ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه ، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة ، فعقد سبحانه لواءَ هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته ، وهو القلب الذي هو محل معرفته ، ومحبته ، وعبوديته ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، فولاه أمر هذا الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه : ﴿ لَه مُعقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : ١١] يعقب بعضهم بعضاً ، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر ، يثبتونه ، ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد .

ثمّ أمده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه . فأرسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل إليه كتابه ، فازداد قوة إلى قوته ، ومدداً إلى مدده ، وعدة إلى عدته ، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً . وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر ، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة .

ثم أمدَّ سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين

طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون ، قال الله تعالى : ﴿ أولئك حِزْبُ الله ، ألاَ إنَّ حزبَ الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : ٢٢] وهؤلاء جندي ﴿ وَإنَّ جُنْدنا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾[الصَّافات: ١٧٣] .

وعلم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد . فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو ، وهي مقاومته ومنازلته ، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة ، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو ، ولزوم ثغر العين والأذن واللّسان والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه .

فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان ، وقد أخلُّوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أُحد ، فدخل منه العدو ، فكان ما كان .

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى ، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر .

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تدال مرة ويدال عليك مرة أخرى ؟ أقبل مَلك الكَفَرَة وعساكره ، فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته ، أمره نافذ في أعوانه ، وجنده قد حفوا به ، يقاتلون عنه ويدافعون عن حَوزته ، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض امرائه وجنده عليه ، فسأل

عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة . فقيل له : هي النفس ، فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها ، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها ، فعِدوها به ، ومنوها إياه ، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها ، فإذا اطمأنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ، ثم جروها بها إليكم ، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن واللِّسان والفم واليد والرِّجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير ، أو جريح مثخن بالجراحات ، ولا تُخلوا هذه الثغور ، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها ، وإن غُلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل إلى القلب ، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً ، فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً ، بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً ، فإن استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة ، فإنه أقرب إليه ، وأعلق بنفسه ، وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم ، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر ، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوّي عزيمته ، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر ، وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهوّنوا عليه أمره ، وقولوا له : مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق ، والتأمل لبديع صنعه ، وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سُدى ، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له : هذه (الصورة) مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه ، فادعوه إلى القول بالاتحاد ، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك ، فإنه يصير به من إخوان النصارى ، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة ، والعبادة والزهد في الدنيا ، واصطادوا عليه (وبه) الجهال ، فهذا من أكبر خلفائي وأكبر جندي ، بل أنا من جنده وأعوانه .

فصل : ثغر الأذن

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه ، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً ، وألقوا الكلمة ، فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزجوه بأخواتها ، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره ، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء ، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به ، إما بإدخال ضده عليه ، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه ، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه ، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، وإما بإرخاصة على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أغلى عند الناس ، وأعز عليهم ، وأغرب عندهم ، وزبونه القائلون له أكثر ، وأما الحق فهو مهجور ، وقائله معرض نفسه للعداوة ، والرّابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك ، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ، وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه .

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس ، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول ، وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وإلقاء الفتن بين الناس ، ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف ، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله : «من يسألني فأعطيه» تحركاً وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون مايقوم به من أفعاله حوادث ، ومايقوم به من صفاته أعراضاً ، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات

التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الأمور، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام : ١١٢] فسماه زخرفاً ، وهو باطل . لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ، ويلقيه إلى سمع المغرور ، فيغتر به .

والمقصود : أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه ، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه ، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه .

فصل : ثغر اللسان

ثمّ يقول : قوموا على ثغر اللِّسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك ، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه ، من ذكر الله تعالى ، واستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصيحة عباده ، والتكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان ، لا تبالون بأيهما ظفرتم :

أحدهما : التكلم بالباطل ، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

والثاني : السكوت عن الحق ، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس ، كما أن الأول أخ ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح « المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوّفوه من التكلم بالحق بكل طريق .

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبّهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ؟ .

وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة ،

ويكون الآخر على لسان السامع ، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجيب منها ، ويطلب من أخيه إعادتها ، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مَرْصد . أما سمعتم قَسَمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] أو ما تروني قد قعدت لابن آدم بطرُقه كلها ، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره ، حتى أُصيب منه حاجتي أو بعضها ؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها ، وقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة ؟ » . فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير ، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة ، وقولوا له في نفسه : أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل ، وتصير بمنزلته أنت سواء ؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه ، فقال : هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج ، فقولوا : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها ، ثمّ اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم ، وزينوها في قلوبهم ، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء ، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم ، فنعم العون هن لكم .

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه .

واعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمَّارة . فأعينوها واستعينوا بها ، وأمدوها واستمدوا منها ، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها ، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة ، وانطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من

حصنه، واعزلوه عن مملكته ، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بما تَهوونه وتحبونه ، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة ، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها ، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته ، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها ، وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له : ذُقْ طعم هذا الوصال ، والتمتع بهذه العروس ، كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها ، فليست بيوم وتنقضي ، وإنما هو حرب متصل بالموت ، وقواك تضعف عن حرب دائم .

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما : جند الغفلة ؛ فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك ، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن إغوائه .

والثاني : جند الشهوات ، فزينوها في قلوبهم ، وحسنوها في أعينهم ، وصُولُوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات ، وعلى الشهوات بالغفلة واقرنوا بين الغافلين ، ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد خمسة ، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم ـ من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه ، ولم تقدروا على تفريقهم ـ فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم .

وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها ، وأدخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته ، فساعدوه عليها ، وكونوا أعواناً له على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ، ويصابروكم ، ويرابطوا عليكم الثغور ، فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب ، فلا تصطادون

بني آدم في أعظم من هذين الموطنين .

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ، ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب ، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه ، ولا تعطوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحري أن لا يملك نفسه عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وامزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب ، وإلى الغضب من طريق الشهوة .

واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما القيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم ، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه .

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماءِ والصلاة والذكر والتكبير ، فإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوءِ والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة ، وقد أمرهم نبيهم بذلك ، فقال : « إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم (من) احمرار عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسّ بذلك فليتوضأ » . وقال لهم : « إنما تطفأ النار بالماءِ » . وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة ، فحُولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها : الغفلة ، واتباع الهوى . وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم : ذكر الله ، ومخالفة الهوى . فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله ، ولا تدنوا منه .

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ، ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، ويكون معهم على نفسه ، وهذا غاية الجهل .

ما يبلغ الأعداءُ من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب أن العبد يسعى بجهده في هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم .

ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها ، وهو يزعم أنه يسعى في حظها ، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها ، وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها .

وكان بعض السلف يقول في خطبته : ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومُذلٍ لنفسه وهو يزعم أنه لها مُعزٌّ ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبِّر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها ؟ وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوٍ على نفسه ، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه ، والله المستعان .

فصل : المعاصي تنسي العبد نفسه

ومن عقوباتها : أنها تنسي العبد نفسه ، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها .

فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسي نفسه فأيُّ شيء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟ .

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩] فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال الله تعالى ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين .

إحداهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكل به ، ينسيه ذلك جميعه ، فلا يُخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ، فلا يخطر بباله إزالتها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسي مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم ؟ .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها و ضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد في هذه الدنيا لآخرته .

والخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ، ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها ، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلاً بعاجل ، ونسيئة بنقد ، وغائباً بناجز ، وقالوا : هذا هو الحزم ، ويقول أحدهم :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعتَ به

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه ؟ ويضم إلى ذلك ضعف الإيمان ، وقوة داعي الشهوة ، ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ ، [البقرة : ٨٦] . وقال فيهم : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٦] . فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ،

فتتقطع عليها النفوس حسرات .

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق ، وخسيساً بنفيس ، وحقيراً بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها ؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم ، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلا ساعةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عِنَ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاها ؟ إلى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ، إنَّما أَنتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٦] وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنْ نهارٍ ، بَلَاغٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ قَالَ : كَمْ لَبِثْتُمْ في الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ ، فَاسْأَلِ العَادِّينَ ، قَالَ : إن لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون ١١٢ ـ ١١٤] . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً يَتَخَافَتُون بَيْنَهُمْ ، إن لَبِثْتُمْ إلاَّ عَشْراً ، نَحْنُ أَعْلَمُ بما يَقُولُونَ ، إذ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً : إن لَبِثْتُمْ إلاَّ يَوْماً ﴾ [طه : ١٠٢ ـ ١٠٤] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة ، فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم داراً غير هذه الدار ، هي دار الحيوان ودار البقاء ـ رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه ، وكل أحد في هذه الدنيا بائع غير مشتر متجر. وكل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها ﴿ إنَّ اللَّهَ آشْتَرَىٰ مِنَ المؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوراةِ والإنْجيلِ والقُرآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أيها المفلسون ، ويا من لا يقدر على هذا الثمن ها هنا ثمن آخر ، فإن كنت من أهل هـذه التجارة فـأعط هذا الثمن

﴿ التَّائِبُونَ ، العَابِدُونَ ، الحَامِدُونَ ، السَّائِحُونَ ، الرَّاكِعُونَ ، السَّاجِدُونَ ، الآمِرُونَ بِالمعْرُوفِ ، والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ ، والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِّرِ المؤمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] ﴿ يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارةٍ تُنْجِيْكُم ، مِنْ عَذَابٍ أَليم ؟ تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ في سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصَّف : ١٠ ، ١١] .

والمقصود : أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة ، وتشغله بالتجارة الخاسرة ، وكفى بذلك عقوبة ، والله المستعان .

فصل : المعاصي تزيل النعم

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة ، وتقطع النعم الواصلة ، فتزيل الحاصل ، وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا ستُجلِب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة : سبباً يجلبه ، وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته ، وآفاتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها .

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره ، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أُزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه ، وهو مقيم على معصية الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة (أو) مخصوص من هذا العموم ، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه .

فأي جهل أبلغ من هذا ؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلي الكبير .

فصل : المعاصي تباعد بين العبد والملك

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنفع الخلق له وأنصحهم له ، ومن سعادته في قربه منه : وهو الملك الموكل به ، وتدني منه عدوه ، وأغش الخلق له ، وأعظمهم ضرراً له : وهو الشيطان ، فإن العبد إذا عصى الله تباعد

منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة .

وفي بعض الآثار « إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه » ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه ؟

وقال بعض السلف : إذا ركب الذكرُ الذكرَ عجت الأرض إلى الله ، وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظيم ما رأت .

وقال بعض السلف : إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان ، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان .

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له ، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه ، كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِيْنَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكَةُ ألاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ ﴾ [فصلت : ٣٠ ، ٣١] . وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم ، فثبته وعلمه ، وقوَّى جنانه ، وأيده . قال تعالى : ﴿ إذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الملائكَةِ أني مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِيْنَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] فيقول له الملك عند الموت : « لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك » ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا ، وعند الموت . وفي القبر عند المسألة .

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه في يقظته ومنامه ، وحياته وعند موته ، وفي قبره ، ومؤنسه في وحشته ، وصاحبه في خلوته ، ومحدثه في سره ، يحارب عند عدوه ، ويدافع عنه ويعينه عليه ، ويعِدُه بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء في الأثر الذي يُروَى مرفوعاً « إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة

وللشيطان لمة ، فلمّة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه ، وألقى عليه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك ، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان .

وفي الحديث « إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقي بالقلب الحق ، ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقي الباطل في القلب ، ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصي : أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته ، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما « اختصم بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت ، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس » . وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمّن الملك على دعائه ، وقال « لك بمثله » وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه ، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملَك ، فملَكُ المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ، ويعلمه ويثبته ويشجعه ، فلا يليق به أن يسيء جواره

ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده ، فإنه ضيفه وجاره ، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته ، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم ؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه ، وقال : « لا جزاك الله خيراً » كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان .

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم « إن معكم من لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم وأكرموهم » .

ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر ، ولا يجله ولا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١٢] أي استحيوا من هؤلاءِ الحافظين الكرام وأكرموهم ، وأجلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته ، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاءٍ يحفظ قوته ، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته ، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها ، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى : اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره .

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فإنها تستجلب المواد المؤذية ، وتوجب التخليط المضاد للحمية . وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض ، وهو لا يستفرغها ، ولا يحتمي

لها ، كيف تكون صحته وبقاؤه ، ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية حصّنته مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح ، لم يدع للخير مطلباً ، ولا من الشر مهرباً ، والله المستعان .

فصل : العقوبات الشرعية على المعاصي

فإن لم تَرُعك هذه العقوبات ، ولم تجد لها تأثيراً في قلبك ، فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله عن الجرائم ، كما قطع اليد في سرقة ثلاث دراهم ، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس ، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن ، أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة وبنفي سنة عن وطنه وبلده إلى الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه ، أو ترك الصلاة المفروضة ، أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطيء ذكراً مثله ، وقتل المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير ، ولم يرتب عليه حداً . كأكل الرجيع ، وشرب الدم ، وأكل الميتة ، وما كان في الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته ، وبقدر داع الطبع إليه .

ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنى من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القِتْلات وأعظمها ، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب ، ولما

كانت (جريمة) اللواط فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعي السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد .

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به ، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها ، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد . . .

فإن قيل : فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية ؟!

قيل ، لوجوه :

أحدها : أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية ، إذ فيه قطع النسل ، وتعريضه للهلاك .

الثاني : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة ، بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أُخرى تعوض عنها ، بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنى عمت جميع البدن ، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببَضْعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل ، وأقومها بالمصلحة .

والمقصود : أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية ، أو يجمعهما الله للعبد ، وقد يرفعهما عمن تاب وأحسن .

فصل : عقوبات الذنوب شرعية وقدرية

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية ، وقدرية ، فإذا أُقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين

العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ، ولم يكف في زوال دائه وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ، وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة ، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يُعمِّم الله بعقابه .

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرّعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها ، وجعلها ا لله سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد ، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه ، وهو الزنى واللواط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد (الأنساب ، ونوع) الإنسان .

قال الإمام أحمد « لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى » واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : « يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال: قلت: ثم أي ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال: قلت: ثم أي ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك » . فأنزل الله تصديقها ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَلاَ يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان : ٦٨] .

والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل ؛ فإنه سأله عن أعظم الذنب ، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك : أن يجعل العبد لله نداً .

وأعظم أنواع القتل : أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنى : أن يزني بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف من انتهكه من الحق ، فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه : فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات البعل ، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى ، وذلك من أعظم البوائق

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقَه » ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم ، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال : خذ من حسناته ما شئت ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أي ما ظنكم أنه يترك له من الحسنات قد حكّم في أن يأخذ منها ما شاء ؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً ، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظّم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة ، والله المستعان .

فصل : القطع لإفساد الأموال

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، لأنه يأخذ الأموال في اختفاء ، وينقب

الدور ، ويتسوّر من غير الأبواب ، فهو كالسِّنَّوْر والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل ، ولا تندفع بالجلد ، فأحسن ما دفعتْ به مفسدته إبانة العضو الذي يتسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول ، وتمزيق الأعراض بالقذف .

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق ، وهو أعلاها ، والإطعام ، والصيام .

ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام :

قسماً فيه الحد ، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاءِ الحد .

وقسماً لم يترتب عليه حداً ، فشرع فيه الكفارة ، كالوَطْء في نهار رمضان ، والوطء في الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطإ ، والحنث في اليمين ، وغير ذلك .

وقسماً لم يترتب عليه حداً ولا كفارة ، وهو نوعان :

أحدهما : ما كان الوازع عنه طبيعياً ، كأكل العَذرة ، وشرب البول والدم .

والثاني : ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد ، كالنظر والقُبلة واللمس والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك .

وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ، ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم ، كالوطء في الإحرام والصيام ، وطَرْدُه : الوطء في الحيض والنفس ، بخلاف الوطء في الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح ، فإنه لا يباح في وقت دون وقت ، فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثاني : ما عقد الله من نذر أو بالله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ،

فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تَحِلَّة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث ، كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكـون واجباً ، وقـد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حلٌ لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جبارة لما فات ، ككفارة قتل الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد خطأ ، فإن ذلك من باب الجوابر ، والنوع الأول من باب الزواجر ، والنوع الأوسط من باب التحلة لما منعه العقد .

ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية ، بل إن كان فيها حد اكْتُفي به ، وإلا اكتفي بالتعزير ، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية ، بل كان معصية فيها حد فلا كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها ؟ فيه وجهان ، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة ، فقيل : يجب التعزير ، لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة ، وقيل : لا تعزير في ذلك ، اكتفاء بالكفارة ، لأنها جابرة وماحية .

فصل : العقوبات القدرية

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان : نوع على القلوب والنفوس ، ونوع على الأبدان والأموال .

والتي على القلوب نـوعان ، أحـدهما : آلام وجـودية يضـرب بهـا القلب ، والثـاني : قطع المـواد التي بها حيـاته وصـلاحه عنـه ، وإذا قطعت عنـه حصل لـه أضدادها ، وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهي أصل عقوبة الأبدان .

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد ، حتى تسري من القلب إلى البدن ، كما يسري ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها ، فظهرت القلب حينئذ وصارب علانية ظاهرة ، وهي المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

فصل : العقوبات القدرية على الأبدان

والتي على الأبدان أيضاً نوعان : نوع في الدنيا ، ونوع في الآخرة ، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه في الشدة والخفة ، فليس في الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ منهما في خطبته بقوله « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » وسيئات الأعمال : من شرور النفس ، فعاد كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .

وقد اختلف في معنى قوله « ومن سيئات أعمالنا » هل معناه السيء من أعمالنا ، فيكون من باب إضافة الفرع إلى جنسه ؟ أو تكون « من » بيانية ، وقيل : معناه من عقوباتها التي تسوء ، فيكون التقرير : ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا ، ويرجح هذا القول: أن الاستعادة تكون قد تضمنت جميع الشر فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهي تستلزم العقوبات السيئة فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه ، إذ هو أصله ، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه ، فهو السيئات التي تسوء العبد عن عمله ، من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الابتعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه ﴾ [غافر : ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاءَ السيء ، وإن كان قوله ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها : الأعمال السيئة ، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يرد على هذا قوله (يومئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم ،

قيل : وقاية السيئات نوعان : أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه ،

والثاني : وقاية جزائها بالمغفرة ، فلا يعاقب عليها ، فتضمنت الآية سؤال الأمرين ، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية .

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه ، وسعة رحمته ، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة ، واستيلاء عدوهم وأنفسهم ، وهواهم وطباعهم ، وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم ، إذ أنشأهم من الأرض ، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته ، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله ، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته ، فتابوا مما يكره ، واتبعوا السبيل التي يحبها ، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم والمؤمنين ـ من أصولهم وفروعهم وأزواجهم ـ جنات عدن التي وعدهم بها ، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد ، فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بها .

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ ﴾ أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهي ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر .

والمقصود : أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية ، وعقوبات قدرية ، وهي إما في القلب ، وإما في البدن ، وإما فيهما ، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم حشر الأجساد ، فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر

بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذي لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار ، والكسر على الانكسار ، والاغتراق على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض على الأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة الذنب ، وقد تتأخر عنه ، إما يسيراً وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً ، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقُذَّة فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك ، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل اثره ، فكيف بالذنب على كل يوم وكل ساعة ؟ والله المستعان .

فصل : بعض عقوبات المعاصي

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ، وجوِّز وصول بعضها إليك ، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق لك منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها : الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والإقفال على القلوب وجعل الأكنة عليها والرين عليها والطبع ، وتقليب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء الإنسان نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّدَ في السماء ، وصرف القلوب عن الحق ، وزيادتها مرضاً على مرضها ، وإركاسها وإنكاسها ، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال « القلوب أربعة : قلب أجْرَدُ فيه

سراج يُزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما » .

ومنها التثبيط عن الطاعة ، والإقعاد عنها .

ومنها : جعل القلب أصمّ لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات ، وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام ، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة ، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] . وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر ، كيف وقد قال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [النور : ٦١] . وقال ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس : ١ - ٢] . وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب ، حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى ، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصُّرَعة ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب » . وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين بالطوّاف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه » ونظائره كثيرة .

والمقصود : أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها : الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه : فيخسف به إلى أسفل السافلين ، وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به : أنه لا يزال جوّالاً حول السفليات

والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالاً حول العرش .

ومنها : البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق .

قال بعض السلف « إن هذه القلوب جوّالة ، فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحُشّ » .

ومنها : مسخ القلب ، فيمسخ كما تمسخ الصورة ، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨] قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوّس في ثيابه كما يتطوس الطاوس ، ومنهم من يكون بليداً كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ومنهم الذي هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها ، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشبهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً ، يراه المتفرسون ، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن الله ، وهو المسخ التام ، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير .

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناءِ الناس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ، ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها : مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزىء ، وإزاغته القلبَ الزائغ عن الحق .

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلا ، والمعروف منكرا والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشتري الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه ، وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب .

ومنها : حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة . كما قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، كَلَّا إِنَّهم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون ﴾ [المطففين : ١٥ ـ ١٦] فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم ، فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقرّ به عيناً وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم ، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها : المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِن لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكاً . وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] . وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ، ولا تقرّ العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ،

فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين ، فهم أحياء في الدارين .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، وهو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة ، فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الجنة بقوله « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلَق الذكر » وقال « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ، [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم

الثلاثة ، وهؤلاءِ في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأيُّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب ، وسلامة اصدر ، ومعرفة الرّب تبارك وتعالى ، والعمل على موافقته ؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال ﴿ وإنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لإبْرَاهِيمَ ، إذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافَّات : ٨٣ ـ ٨٤] وقال حاكياً عنه أنه قال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغلّ والحقد والحسد والشح والكِبْر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله ، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد .

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد ، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع له منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت ، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد لا تريده ، كسلاً وتهاوناً ، أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله ، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم . وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق ، فمستقل ومستكثر ، وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك ، بل متى وُكِلَ إلى طباعه حيل بينه

وبين ذلك كله ، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره ، ونهيه وأمره ، فيهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعله الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته[1] لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه ، فهو على صراط مستقيم .

ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً ، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا ، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به ورسوله وما جاءَ به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبإيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه ، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحَسَكا[2] تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا ، وحرم من الشرب منه هاك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ها هنا .

فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ (علماً) يقيناً لا شك فيه : أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها وأنموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان

---

(١) في نسخة : وحكمه .

(٢) الكلاليب : جمع كلاب أو كلوبه

والعمل الصالح وضدهما ، وبالله التوفيق

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة .

فصل : أصل الذنوب

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها .

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً فنقول :

أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب ، وباعتبار متلعقة إلى حق الله ، وحق خلقه ، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه ، لكن سمي حقاً للخلق ؛ لأنه يجب بمطالبتهم ، ويسقط بإسقاطهم .

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

فالذنوب الملكية : أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقهر ، والعلو ، واستعباد الخلق ، ونحو ذلك ، ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى ، وهو نوعان : شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه ، وشرك به في معاملته ، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه ، وجعل له نداً ، وهذا أعظم الذنوب عند الله ، ولا ينفع معه عمل .

فصل : الذنوب الشيطانيه

وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان في الحسد ، والبغي ، والغش ، والغل ، والخداع ، والمكر ، والأمر بمعاصي الله ، وتحسينها ، والنهي عن طاعته ، وتهجينها ، والابتداع في دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال .

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة ، وإن كانت مفسدته دونه .

فصل : الذنوب السبعية

وأما السبعية : فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماءِ ، والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني ، والجرأة على الظلم والعدوان .

وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقة ، وأكل أموال اليتامى ، والبخل ، والشح ، والجبن ، والهلع ، والجزع ، وغير ذلك .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ، فهو يجرهم إليها بالزمام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية ، والشرك في الوحدانية .

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته .

فصل : الذنوب : كبائر وصغائر

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر ، قال الله تعالى : ﴿ إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كريماً ﴾ [النساء : ٣١] . وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات :

إحداها : أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها ، والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدواءِ الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر . فتأمل هذا ، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . فقال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الإشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وآكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم «أنه سئل : أي الذنب أكبر عند الله؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك . قيل : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك » فأُنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالحَقِّ ، وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] الآية .

واختلف الناس في الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين :

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها ، فقال عبد الله بن مسعود : هي أربع ، وقال عبد الله بن عمر هي سبع ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص هي تسعة ، وقال غيره هي إحدى عشرة . وقال آخر : هي سبعون .

وقال أبو طالب المكي : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب ، وهي : الشرك بالله ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . وأربعة في اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر . وثلاث في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . واثنان في الفرج ، وهما : الزنى ، واللواط . واثنان في اليدين وهما : القتل ، والسرقة . وواحد في الرجلين ، وهو الفرار من الزحف . وواحد يتعلق بجميع الجسد ، وهو عقوق الوالدين .

والذين لم يحصروها بعدد ، منهم من قال : كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة .

وقالت طائفة : ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة .

وقيل : كل ما يرتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة .

وقيل : كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر ، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة .

وقيل : كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة ، وقيل : كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم ﴾ [النساء : ٣١] .

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها ـ بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره ـ كبائر فالنظر إلى من عصى أمره . وانتهك محارمه يوجب ان تكون الذنوب كلها كبائر ، وهي مستوية في هذه المفسدة ، قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها ، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ، ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب .

قالوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، وهذا لو شرب رجل خمراً أو وطيء فرجاً حراماً ، وهو لا يعتقد تحريمه ، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين ، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول : فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب .

قالوا : ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته ، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب .

قالوا : فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه ، وعظمته ، وانتهاك حرمته بالمعصية ، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية ، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد ، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار ، فعصياه وخالفا أمره ، لكانا في مقته والسقوط من عينه سواء .

قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما ، ولا يبعد استواؤهما في العقوبة ، إذا كان كل منهما مصراً على منع زكاة ماله ، قليلاً كان المال أو كثيراً .

فصل : الحق فى هذه المسألة

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال :

إن الله عز وجل أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وخلق السموات والأرض ليعرف ويُعبد ويوحَّد ويكون الدين كله لله ، والطاعة كلها له ، والدعوة له كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ [الحِجْر : ٨٥] . وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ، وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيْر ، وأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمَاً ﴾ [الطلاق : ١٢] . وقال تعالى ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامَاً لِلنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ وَالقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا في السَّمَواتِ وَمَا في الأَرْضِ وأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيم ﴾ [المائدة : ٩٧] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر : أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ، وأن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض ، كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد ، وهو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك لظلم عظيم ، فالشرك اظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات .

فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين ، فيما فرضه على عباده ، وحرمه عليهم ، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي .

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم ، لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا ، أو يقبل فيه شفاعة ، أو يستجيب له في الآخرة دعوة ، أو يقيل له فيها عثرة ، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله ، حيث جعل له من خلقه نداً ، وذلك غاية الجهل به ، كما أنه غاية الظلم منه ، وإن كان المشرك لم يظلم ربه ، وإنما ظلم نفسه .

فصل : شرك الوساطه

ووقعت مسألة ، وهي : أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ، كحال الملوك ، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال : إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدلني وتدخلني عليه ، فهو المقصود ، وهذه وسائل وشفعاء ، فلِمّ كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ، ومخلداً في النار ، وموجباً لسفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟ .

وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة ؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السر في كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

فتأمل هذا السؤال ، اجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه ، فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار .

فنقول ، وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نسأل المعونة والتسديد ، فإنه من يهده الله

فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرك في عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ، ولا صفاته ، ولا في أفعاله .

والشرك الأول نوعان : أحدهما شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون إذ قال : ﴿ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ؟ ﴾ [الشُّعراء : ٢٣] . وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال لهامان ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إلى إلٰهِ مُوسَىٰ ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] والشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل ، وكل معطل مشرك ، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ، ولكنه عطل حق التوحيد ، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها : هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون : ما ثم خالق ومخلوق ، ولا هاهنا شيئان ، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها بالعقول والنفوس ، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرّب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة ، فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه ، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل : شرك من جعل مع الله إله آخر

النوع الثاني : شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلهاً ، وأمه إلهاً .

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه ، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ، ولهذا كانوا أشباه المجوس .

ومن هذا شرك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّي الذي يُحْيي وَيُمِيتُ ، قَالَ : أنا أُحيي وأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فهذا جعل نفسه نداً لله ، يحيي ويميت بزعمه ، كما يحيي الله ويميت ، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم .

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أنه معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه ، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه ، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى ، فتارة تكثر (الآلهة) والوسائط وتارة تقل .

فصل : الشرك في العبادة

وأما الشرك في العبادة : فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص الله في معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ،

وللخلق نصيب ، وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه « الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، قالوا : كيف ننجو منه يا رسول الله ؟ قال : قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » فالرياء كله شرك ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ ، فَمَن كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ ، [الكهف : ١١٠] أي كما أنه إله واحد ، ولا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة ، قال تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البيِّنة : ٥] . فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به ، فلا يصح ، ولا يقبل منه ، ويقول الله « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك معي فيه غيري ، فهو للذي أشرك به ، وأنا منه بريء » .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، وأكبر وأصغر ، والنوع الأول : ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شيء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ ، والَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِيْنٍ ، إِذ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ [الشعراء : ٩٧، ٩٨] .

ومعلوم أنه ما سووهم به سبحانه في الخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ، والملك ، والقدرة ، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يُسوَّى التراب بربِّ الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذي ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنيِّ بالذات ، القادر بالذات ، الذي غناه ، وقدرته ، وملكه ، وجوده ، وإحسانه ، وعلمه ، ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ .

فأي ظلم أقبح من هذا ؟ وأي حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى ﴿ الحَمْدُ للَّهِ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ، ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] فعدل المشرك من خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فيا لك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !! .

فصل : الشرك في الأقوال والأفعال والإرادات والنيات

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الأفعال ، والأقوال، والإرادات ، والنيات ، فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض ، وتقبيل القبور ، واستلامها ، والسجود لها ، وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها ، فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله ؟ .

ففي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفي الصحيح عنه : « إن من أشرار الناس مَنْ تدركهم الساعة وهم أحياء ،

والذين يتخذون القبور مساجد » .

وفي الصحيح أيضاً عنه : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني انهاكم عن ذلك » .

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه ، وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله زوّارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وقال : « اشتد عضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال : « إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر ، فكيف حال من سجد للقبر نفسه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد » وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين ، وسدُّ الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس .

وأما السجود لغير الله فقال « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله » و« لا ينبغي » في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذي هو غي غاية الامتناع شرعاً ، كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : ٩٢] . وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس : ٦٩] . وقوله ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ [الشعراء : ٢١٠] وقوله عن الملائكة ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِن أَوْلِيَاءَ ﴾ [الفرقان : ١٨] .

فصل : الشرك فى اللفظ

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ ، كالحلف بغيره ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد

أشرك » صححه الحاكم وابن حبان .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل « ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده » . هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُم أَن يَسْتَقِيم ﴾ [التكوير : ٢٨] . فكيف بمن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا في حسب الله وحسبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض ، أو يقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : نذرا لله ولفلان ، أو أنا تائب لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلاناً ، ونحو ذلك ؟ .

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش ؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعل لله نداً فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الأشياء ـ بل لعله أن يكون له من أعدائه ـ نداً لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل ، والإنابة ، والتقوى ، والخشية ، والحسب ، والتوبة ، والنذر ، والحلف ، والتسبيح ، والتكبير ، والتهليل ، والتحميد ، والاستغفار ، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً ، والطواف بالبيت ، والدعاء ، كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وفي مسند الإمام أحمد « أن رجلا أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد أذنب ذنباً ، فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : قد عرف الحقَّ لأهله »

فصل : الشرك فى الإرادات والنيات

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك في نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من

أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيْناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل : حقيقة الشرك

إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور ، فنقول ، ومن الله وحده نستمد الصواب .

حقيقة الشرك : هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به ، هذا هو التشبيه في الحقيقة ، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ، فعكس الأمر من نكس الله قلبَه ، وعمى عين بصيرته ، وأركسه بكسبه ، وجعل التوحيد تشبيهاً ، والتشبيه تعظيماً وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية . فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ـ فضلا عن غيره ـ شبيها لمن له الأمر كله ، فأزِمَّة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد .

فمن أقبح التشبيه : تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات .

ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا نِدَّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

ومن خصائص الإلهية : العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه . وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ، [النور : ٣٥] .

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به .

ومنها : التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها : التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به .

ومنها : الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه .

وأما في جانب التشبه به : فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء ، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت أقدام خلقه .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته » وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة ، فما

الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية ؟كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم » .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر .

والمقصود : أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة ، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته ؟ وكذلك من تشبه في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الأحكام ، ونحوه .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أخضع الأسماء عند الله رجل يسمى : بشاهان شاه - أي ملك الملوك - لا ملك إلا الله » وفي لفظ « أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك » .

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ، ويقضي عليهم كلهم ، لا غيره .

فصل : سوء الظن بالله

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس ، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [الفتح : ٦] . وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾

[فُصِّلت : ٢٣] . وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ؟ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ؟ فَما ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ [الصَّافات : ٨٥ ـ ٨٧] أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافي لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، ويعينهم على قضاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء ، الغني بذاته عن كل شيء ، العالم بكل شيء ، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ، ويمتنع في العقول والفطر جوازه ، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح .

ويوضح هذا : أن العابد معظم لمعبوده ، متأله له ، خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل ، وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِن أَنْفُسِكُمْ ، هَل لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ إِيْمَانُكُم مِن شُرَكَاءَ فِي ما رَزَقْنَاكُم فَأَنتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨] أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية ، التي لا تنبغي لغيري ، ولا تصح لسواي ؟.

فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ، ولا عظمني حق تعظيمي ، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيري ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه ، وقال تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، [الزمر : ٦٧] فما قدر مَن هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً ، ولا أنزل كتاباً ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلاً وعبثاً ، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب ، فيكون في ملكه ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون ، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد ، ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيه ألبتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذي جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً ، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم

الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير.. ولا هو واقع بإرادته ، بل ولا هو فعله ألبتة ، ثم يعاقبه عليه عقوبة الأبد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش[1] ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان ، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] . وتعرج الملائكة والروح إليه ، وتنزل من عنده ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان ، بل غيره من الحيوان ، أن يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ، ولم يجعل لـه فعلاً اختيارياً يقوم بـه ، بل أفعـاله مفعولات منفصلة عنه ، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها ، وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً ، أو جعله سبحانه يحل في مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز ، ووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذلة أينما ثُقفوا. وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب ، تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين : أنه أرسل ملكاً ظالماً ، فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، ومكث زمناً طويلاً يكذب عليـه كل

وقت ، ويقول : قال الله كذا ، وأمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول : الله أباح لي ذلك ، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ، ويعزه ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن خالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء .

ومعلوم أنْ هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علواً كبيراً .

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين ، كما قال الشاعر :

رضيعيْ لبان ثدي أُم تقاسما   بأسحم داج عوض لا نتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء ، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك ، فمنعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله . وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار ، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ للذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفْسِدِيْنَ في الأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ ؟ ﴾ [ص : ٢٧ - ٢٨] . وقال ﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَجْعَلَهُمْ كَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَخَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ ، وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١ ، ٢٢] . وقال ﴿ أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالمُجْرِمِينَ ؟ مَالَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] .

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من في

القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين للمشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدر حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم من طاعته ، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو في قبضته ، وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحيي من الناس ولا يستحيي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام في حق ربه ـ إن ساعد القدر ـ قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوق لمثله ، فهل قدر الله حق قدره مَن هذا وصفه ؟

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه ، واستهانة به ، وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وأَنِ اعْبُدُونِي هَـذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] . ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ

لِلمَلائِكَةِ : أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ ﴾ [سَبَأ : ٤٠ ، ٤١] فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ، ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عُبّاد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب . وهي التي تخاطبهم ، وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأُمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعباد أمه ، ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ، لا عبد الله ورسوله ، فنزل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ، أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] . فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإِنْسِ ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم - ﴿ وَقَالَ أولِيَاؤُهُم مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ، إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . [الأنعام : ١٢٨] .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود في العذاب ، وأنه ليس تحريمه وقبحه لمجرد النهي عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فصل : الشرك والكبر

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق ، وأمر لأجله بالأمر ، كان أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه خلق الخلق ، وأنزل الكتاب ، لتكون الطاعة له وحده . والشرك والكبر ينافيان ذلك ، وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر .

فصل : القول على الله بغير علم

ويلي ذلك في كبر المفسدة : القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله . ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لكمال من له الخلق والأمر ، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله ، فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ! كما أن من أقر لملك بالملك ، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك ، لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور يقربه إليه ، خير ممن جحد صفات الملك ، وما يكون به ملكاً ، هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول .

فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً ؟ .

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لا دواء له . ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ، فقال : ﴿ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ ، فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ . وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] . واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية . وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب ، والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان . ولما كانت البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به

عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً وجهلاً كانت من أكبر الكبائر ، وإن قصرت عن الكفر ، وكانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب ، كما قال بعض السلف « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها » . وقال إبليس « أهلكت بني آدم بالذنوب ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه ، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .

فصل : الظلم والعدوان

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي به قامت السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس به كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه ، وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له ـ وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليهم ، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة ، فقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله ـ من أقبح الظلم وأشده وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذا رحمه ، وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعي في إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي ويليه من قتل إماماً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ، ويدعوهم إلى الله سبحانه ، وينصحهم في دينهم ، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار ، وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً

واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا ، وخرج منها بظلامته ، فلا بد أن يستوفي له في دار العدل .

قالوا : وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ .

وهذا أصح القولين في المسألة : أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده .

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتلة ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه ، وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ ، إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] فهذه في حق التائب وهي تتناول الكفر وما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث .

والتحقيق في المسألة : أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق : حق الله ، وحق للمقتول ، وحق للولي ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ندماً على ما

فعل ، وخوفاً من الله ، وتوبة نصوحاً ، سقط حق الله بالتوبة ، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو . وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هذا .

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها ، فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برىء من عهدته في الآخرة ، كما برىء منها في الدنيا .

وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته ، ومات ولم ينتفع به . وهذا ظلم لم يستدركه ، وإنما ينتفع غيره باستدراكه ، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة . كانت المطالبة به للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث . وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد .

وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من أخذ ماله أو المطالبة به فلم يأخذه حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث في الآخرة ، كما هي كذلك في الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه ، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً ، فالطلب له في الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل ، وداره التي أحرقها غيره ، وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره . ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث ، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه . يبقى أن يقال . فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت ، فهي ملك الوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا .

وهذا سؤال قوي لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً ، كما لو

غصب مالاً مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض ، والله أعلم .

فصل : جريمة القتل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ، قال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَو فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقال : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه . وقد قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَومَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِن نَهَارٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله» . أي مع العشاء كما جاءَ في لفظ آخر. وأصرح من هذا قوله « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من قرأ : قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به ، فيكون قدرهما سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد ـ بعد الإيمان ـ أفضل من الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فإن قيل : ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ؟ قيل ، في وجوه متعددة :

أحدهما : أن كلا منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لأمره ، متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد بـاءَ بغضب الله ولعنته ، واستحقـاق الخلود في نار جهنم ، وإعداده له عذاباً عظيماً ، وإنما التفاوت في دركات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس .

الثاني : أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام ، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق ، بل لمجرد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله ، فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الإنساني .

ومنها : أنه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً .

ومنها : أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلف سائر الجسد ، وآلم جميع أعضائه ، فمن آذى مؤمناً واحداً فكأنما آذى جميع المؤمنين ، وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس ، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم ، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمه ، لأنه أول من سَنَّ القتل » . ولم يجيء هذا الوعيد في أول زانٍ ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر . وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل ، لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن لحي الخزاعي يعذب بأعظم العذاب في النار ، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ [البقـرة : ٤١] أي فيقتدي بكم من

بعدكم فيكون إثم كفره عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً ، يقول : يا رب ، سل هذا : فيم قتلني ؟ فذكروا لابن عباس التوبة ، فتلا هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدَاً فِيهَا ﴾ » [النساء : ٩٣] ثم قال : « ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة ؟ » . وقال الترمذي هذا حديث حسن .

وفيه أيضاً : عن نافع قال « نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة ، قال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك » . قال : هذا حديث حسن .

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال « أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كفٍّ من دم أهراقه فليفعل » .

وفي صحيحه أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » .

وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال « من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه ، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً ، فرآها النبي صلى الله عليه وسلم في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم ؟ وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق » .

فصل : جريمة الزنى

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد ، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه ، وفي ذلك خراب العالم . كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه كما تقدم .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى . وقد أكد سبحانه حرمته بقوله ﴿ وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ، يُضَاعِفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ، إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠] . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] . فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول . حتى عند كثير من الحيوان ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال « رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا » ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا ، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا ، وعذاب وخزى ونكال في الآخرة ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء :٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه منه ، فقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ، الذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالذِينَ هُمْ

عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ - إلى قوله - فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ - ٧] .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ، ووقع في اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك

ونظير هذا : أنه سبحانه ذم الإنسان ، وأنه خلق هلوعاً لا يصبر على سراء ولا ضراء ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه ، فذكر منهم : ﴿ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج : ٢٩ - ٣١] فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

ولما كان بمدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤ ها من البصر ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، تتكون نظرة ، ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ؟ ولهذا قيل : من حفظ هذه لأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلازم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ، ويُتبر ما علا تَتبيراً .

فصل : مداخل المعاصي

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة ، فنذكر في كل باب منها فصلا يليق به .

فأما اللحظات : فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع

النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الأخرى » .

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس : فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه . هذا معنى الحديث . وقال « غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم » . وقال « وإياكم والجلوس على الطرقات . قالوا يا رسول الله مجالسنا ، ما لنا بد منها . قال : إن كنتم لا بد فاعلين ، فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، وردُّ السلام » .

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، ما لم يمنع منه مانع . وفي هذا قيل « الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده » قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام اذ طرف يقلبه ... في أعين العين موقوف على الخطر
بسرور مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر : أنه يورث الحسرات والزفرات الحرقات ، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب : أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه ، ولا قدرة على بعضه قال الشاعر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً، أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح ، ومراده : أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه . ولا تقدر عليه ، فإن قوله « لا كله أنت قادر عليه » نفي لقدرته على الكل الذي لا ينفي إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد .

كم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا ، كما قيل :

يــا نــاظــراً ، مــا أقلعت لحــظاتــه   حــتى تــشــحط بيــنـهــن قــتـيــلا

ولي من أبيات :

مــلّ الســلامــة فــاغتــدت لحــظاتــه   وقــفــاً على طــلل يــظن جــمـيــلا
مــا زال يــتـبــع إثــره لــحــظاتــه   حــتى تــشــحط بيــنـهــن قــتـيــلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه ، حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر ، ولي من قصيدة :

يــا رامـيــاً بسهــام اللحظ مجتهــداً   أنت القتيل بما تـرمي ، فـلا تصب
يـا باعث الـطرف يـرتـاد الشفـاء لـه   احبس رسولك ، لا يأتيك بـالعطب

وأعجب من ذلك ، أن النظرة تجرح القلب جرحاً ، فيتبعها جرحاً على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها . ولي أيضاً في هذا المعنى :

مــا زلـت تـتبـع نـظرة في نــظرة   في إثــر كـل مليحــة ومليـح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو في الـ   ـتحقيق تجـريح على تجـريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا   فـالقلب منك ذبيـح أي ذبيـح

وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

فصل : الخطرة

وأما الخطرات : فشأنها أصعب ، فإنها مبـدأ الخير والشـر ، ومنها تتـولد الإرادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفســه له أغلب . ومن استهـان بالخـطرات قادتـه قهراً إلى الهلكات . ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنىً ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَاللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ،وَاللَّهُ

سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ ، [النور : ٣٩] وأخس الناس همة ، وأوضعهم نفساً من رضي الحقائق بالأماني الكاذبة ، واستجلبها لنفسه ، وتحلى بها ، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ، ومتاجر البطالين وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أماني من سعدى رواء على الظما ... سقتنا بها سعدى على ظَمإٍ برداً
منى إن تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وهي أضر شيء على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط والحسرة والندم . والمتمني لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها في قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدي عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب . والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها . وإنما شرف النفس وزكاؤ ها ، وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطرها بباله ، ويأنف لنفسه منها .

ثم الخطرات بعد اقسام ندور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته .

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة ، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها.لم يتركه لغيره ، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته ، وأخر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته .

بقي قسمان آخران ، أحدهما : مهم لا يفوت . والثاني : غير مهم ولكنه يفوت ، ففي كل منهما ما يدعو إلى تقديمه ، فهنا يقع التردد والحيرة ، فإن قدَّمَ المهم خشي فوات ما دونه وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم ، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر ، فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن ههنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ،

وخاب من خاب ، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت ، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها مرجع الخلق والأمر ، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما ، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها ، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها ؛ فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها .

فخطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها : ما كان لله والدار الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع .

أحدها : الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها ، وفهم مراده منها ، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة . قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا .

الثاني : الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته ، وحكمته ، وإحسانه ، وبره ، وجوده ، وقد حض الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة في آلائه وإحسانه ، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم ، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة في عيوب النفس وآفاتها ، وفي عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع ، وهي باب لكل خير ، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها ، فحيي القلب ودارت

كلمته في مملكته ، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه .

الخامس : الفكرة في واجب الوقت ووظيفته ، وجمع الهم كله عليه ، فالعارف ابن وقته ، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت ، وإن ضيعه لم يستدركه أبداً .

قال الشافعي رضي الله عنه « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين : أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك . وذكر الكلمة الأخرى : ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عاش عيش البهائم ، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له (من صلاته) إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر ، فإما وساوس شيطانية ، وإما أماني باطلة وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول ، عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتي في الحشر عندكم ... ما قد لقيت، فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمناً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته ، فالخاطر كالمار على الطريق فإن تركته مر وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره ، أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركّب الله سبحانه في الإنسان نفسين . نفساً أمارة ، ونفساً مطمئنة ، وهما متعاديتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وما جاء به داعي الهوى . وليس عليها شيء أضر منه . والملك مع هذه عن يمنة القلب ، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفي أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدو أبداً : أن العاقبة للتقوى . والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأماني باطلة ، وسراب لا حقيقة له ؟ فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ ، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم ، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شيء فيها ، فصادفها الشيطان خالية ، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها ، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى ، وإذ خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه ، وهي إرادة مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه ، وشغل القلب

واهتمامه بمعرفته على التفصيل به ، والقيام به وتنفيذه في الخلق ، والتطرق إلى ذلك ، والتوصل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه ، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها . وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ . وهيهات هيهات إنما الكمال في امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه ، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت ، والله المستعان .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالى ، فربما استعملها في صلاته ، وكان يجّهز جيشه وهو في الصلاة ، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة . وهو باب عزيز شريف ، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب ، متضلع من العلم عالي الهمة ، بحيث تدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فصل : اللفظات

وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه ، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوت بها كلمة هي أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه ، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان ، فإنه يطلعك على ما في القلب ، شاء صاحبه أم أبى .

قال يحيى بن معاذ « القلوب كالقدور تغلي بما فيها ، وألسنتها مغارفها » . فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج ، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه ، فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدور بلسانك .

في حديث أنس المرفوع « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال « الفم والفرج » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقد سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال : كف عليك هذا ، فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أُمك يا معاذ وهل يكُب الناس على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ، ولسانه يفري[1] في أعراض الأحياء والأموات ، ولا يبالي ما يقول .

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يَتألى عليّ أني لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت له وأحبطت عملك » فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله .

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريره « تكلم بكلمة أوبقت[2] دنياه وآخرته » .

---

١) فري الجلد : مزقه

٢) أوبقت : أهلكت .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها في نار جهنم » . وعند مسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » وكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ؟ .

وفي جامع الترمذي أيضاً من حديث أنس قال « توفي رجل من الصحابة ، فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك ؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » قال : حديث حسن .

وفي لفظ « إن غلاماً استشهد يوم أُحد ، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أُمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئاً لك يا بنيّ ، لك الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، ويمنع ما لا يضره » .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفي لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت » .

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولا

لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا » والحديث صحيح .

وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله عز وجل » قال الترمذي : حديث حسن . وفي حديث آخر « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : اتق فينا فإنما نحن بك ، فإذا استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله : يوم حار ، ويوم بارد ، ولقد رؤ ى بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها ، قلت ما أحوج الناس إلى غيث ، فقيل لي : وما يدريك ؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي . وقال بعض الصحابة لجاريته يوماً : هاتي السفرة نعبث بها ، ثم قال : أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام ، أو كما قال : وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد .

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط ؟ على قولين أظهرهما الأول .

وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من الله وما والاه[1] وكان الصدّيق رضي الله عنه يمسك على لسانه ويقول : هذا أوردني الموارد ، والكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره . والله عند لسان كل قائل ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وفي اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى : آفة

---

(١) أي وما تبع ذكر الله .

الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، عاص لله ، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه . والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته ، فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفوا ألسنتهم عن الباطل ، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة ، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة ، فضلا أن تضره في آخرته ، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به .

فصل : الخطوات

وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله ، فتقع خطاه قربة .

ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإذا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً ﴾ [الفرقان : ٦٣] فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطوات في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أكثر ما يدخل الناس النار : الفم والفرج » .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم آمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وهذا

الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود .

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأكثر وقوعاً ، والذي يليه ، فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة ، وأيضاً فإنه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم ، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤوسهم بين الناس وإن حملت من الزنى ، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم ، فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفاسد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً ، وإفساد المرأة المصونة ، وتعريضها للتلف والفساد ، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة ، فكم في الزنى من استحلال لحرمات ، وفوات حقوق ، ووقوع مظالم ! .

ومن خاصيته : أنه يوجب الفقر ، ويقصر العمر ، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ومن خاصيته أيضاً : أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن آمرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه « لو رأيت رجلاً مع آمرأتي لضربته بالسيف غير مُصفّح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » متفق عليه .

وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « إن الله يغار » ، وإن المؤمن يغار ،وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه » .

وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه » .

وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ثم رفع يديه وقال : اللهم هل بلغت ؟ » .

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله ، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم ، وهو من أشراط الساعة ، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال « لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدي ، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين آمرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة ، قال عبد الله ابن مسعود « ما ظهر الربى والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها » ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز آمرأة فقال : مهلاً يا بني ، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه ، وأسقطت آمرأته ، وقيل له « هكذا غضبك لي ؟ لا يكون في جنسك خير أبداً » .

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص :

أحدهما : القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثاني : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره .

وهذا - وإن كان عاماً في سائر الحدود - ولكن ذكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره ، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر ، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم ، والواقع شاهد بذلك ، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل ، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه ، والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق ، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة ، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه ، ولا يستنكر هذا الأمر : فإنه مستقر عندما شاء الله من أشباه الأنعام ، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقاص العقول كالخدام والنساء . .

وأيضاً فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين ، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه ، وفي النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد ، وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود ، فيكون موافقاً لربه تعالى في أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة ، وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش ، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره ، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن

يؤتى ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، ويذهب خيره كله ، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه ، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما .

والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور :

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة ولد زنية » فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك ، ولكنه مظنة كل شر وخبث ، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً ، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام ، النار أولى به ، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ؟ .

قالوا: والمفعول به شر من ولد الزنى، وأخزى وأخبث وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير ، وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيراً قيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعلم نافع ولا عمل صالح ولا توبة نصوح .

والتحقيق في المسألة أن يقال : إن تاب المبتلي بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحاً وعمل صالحاً ، وكان في كبره خيراً منه في صغره ، وبدل سيئاته بحسنات ، وغسل على ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله في معاملته ، فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب ، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه والسحر والكفر وغير ذلك ، فلا تقصر عن محو هذا الذنب ، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبدل سيئاته حسنات ، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فلا

يخرج من هذا العموم ذنب واحد ، ولكن هذا في حق التائبين خاصة .

وأما المفعول به إن كان في كبره شراً مما كان في صغره : لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ، ولا استدرك ما فات . ولا أبدل السيئات بالحسنات ، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة ، عقوبة له على عمله ، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أُخرى .

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة ، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله :

« واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسباباً ؛ ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا ، والإعراض عن الأُخرى ، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية ، وجانب من الإعراض ، ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك ، فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول : قل لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه القول ، فأعاد مثل ذلك ، ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي . وكان هذا دأبه ، كلما قيل له لا إله إلا الله ، قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك ، والقتل القتل ، ثم مات . قال عبد الحق : وقيل لآخر ـ ممن أعرفه ـ قل لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والبستان والفلاني افعلوا في كذا .

قال : وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أُحدث به عند أن رجلاً نزل به الموت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده ده وازدة ، تفسيره : عشرة بأحد عشر ، وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ .

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره ، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها . فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه . وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها في الدار ، ولم يغلقها ، فأخذ ما يصلح ورجع ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه في شيء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول :

يا رُبَّ قائلة يوماً ، وقد تعبت : . كيف الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يوماً يقول ذلك ، وإذا بجارية أجابته من طاق :

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزاً على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه واشتد ، ولم يزل على ذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح ، فلما أصبح قيل له : كل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض ، وقال : الذنوب أهون من هذا ، وإنما أبكي من خوف (سوء) الخاتمة .

وهذا من أعظم الفقه : أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت ، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق

ويقرأ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن يكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنَا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد في العقد أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنـابة ، فيـظفر بـه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة ، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصراني فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها ، فترك الأذان ، ونزل إليها ، ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك ، وما تريد ؟ قال : أريدك . قالت ؟ لماذا ؟ قال : قـد سبيت لبي وأخذت بمجـامع قلبي . قـالت : لا أجيبك إلى ريبـة أبداً . قـال : أتزوجك . قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك . قـال : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل ، فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم في الدار . فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدرا فـسقط منه ، فمات فلم يظفر بها ، وفاته دينه .

وقال : ويروى أن رجلاً علق شخصاً ، فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه ، حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه ، وتمنع ذلك الشخص عليه ، واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده ، فأخبره بذلك الناس . ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه ، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما ، فقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، ورغبت إليه

وكلمته ، فقال : إنه ذكرني وفرح بي ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أُعرض نفسي لمواقع التهم ، فعاودته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط في يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول في تلك الحال :

أسلم يـا راحـة العليـل ويـا شفا المـدنف النحيل
رضـاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليـل

فقلت له : يا فلان اتق الله ، قال : قد كان ، فقمت عنه ، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت ، فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

فصل : عقوبة اللواط

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

وقد اختلف الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهري وربيعة ابن أبي عبد الرحمن ، ومالك وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد في أصح الروايتين عنه ـ والشافعي في أحد قوليه ـ إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبة القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ، وقتادة والأوزاعي ، والشافعي ـ في ظاهر مذهبه ـ والإمام أحمد ، في الرواية الثانية عنه ـ وأبو يوسف ومحمد ـ إلى أن عقوبة الزنى سواء .

وذهب الحاكم وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزاني هي التعزير .

قالوا : لأنه معصية من المعاصي لم يقدِّر الله ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فيها حداً مقدراً ، فكان فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطيء في محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها .

قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، فلا يدخل في النصوص الدالة على حد الزانين .

قالوا : وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبيعياً اكتفى بذلك الوازع من الحد ، وإذا كان في الطباع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها ، ولهذا جعل الحد في الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : وطرد هذا ، أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة ، وقيل جبل الله سبحانه الطباع على النفرة من وطء الرجل (رجلاً) مثله أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه ، بخلاف الزنى ، فإن الداعي فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المرأتان ، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى .

قال أصحاب القول الأول ـ وهو جمهور الأمة ، وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة : ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة ، وهي تلي مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

قالوا : ولم يبتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك ، وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم ، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليهم ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها ، خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتعج

الأرض إلى ربها تبارك وتعالى ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فإنه إذا وطئه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله ، فإنه مظلوم شهيد أو ربما ينتفع به في آخرته .

قالوا : والدليل على هذا : أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي ، إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وحتم قتل اللوطي حداً ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد « أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم ، فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه ، فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم ما فعل الله بها ، أرى أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه » .

وقال عبد الله بن عباس « ينظر أعلى بناء في القرية فيرمي اللوطي منها منكباً ثم يتبع بالحجارة » وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله قوم لوط ، وابن عباس هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن . وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث ، وإسناده على شرط البخاري .

قالوا : وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » . ولم يجيء عنه صلى الله عليه وسلم لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، وأكد ثلاث

مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله ، لم يختلف فيه منهم رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله ، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله ، فحاكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهي بينهم مسألة إجماع ، لا مسألة نزاع

قالوا . ومن تأمل قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وقوله في اللواط ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ [الأعراف : ٨٠] . تبين له تفاوت ما بينهما ،وأنه سبحانه أنكر الفاحشة في الزنى ، أي هو فاحشة من الفواحش ، وعرفها في اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد ، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد ، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء : ١٩] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِن أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال ﴿ إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ [الأعراف : ٨١] . ثم نبه على استغنائهم عن ذلك . وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها ، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة هي التي أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأمته ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله ، وتبري عليه بما لا

يمكن حصر فساده ، ولا يعلم تفصيله إلا الله .

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور ، وهي شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلوبهم ، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد ، فقال : ﴿ بَلْ أَنتُم قَوْمٌ مُسْرِفُون ﴾ [الأعراف : ٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى ؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَةِ التي كَانَت تَعْمَلُ الخَبَائِثَ ﴾ [الأنبياء : ٧٤] ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال ﴿ إنَّهُم كَانُوا قَومَ سُوءٍ فَاسِقِين ﴾ [الأنبياء : ٧٤] وسماهم مفسدين في قول نبيهم ﴿ رَبِّ انْصُرْني عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِين ﴾ [العنكبوت : ٣٠] وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم : ﴿ إنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ القَرْيَـةِ إنَّ أَهْلَهَـا كَـانُـوا ظَـالِمِين ﴾ [العنكبوت : ٣١] . فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هـذه المذمات ، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له ﴿ يَا إبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ ، وإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَـذَابٌ غَيْرُ مَـرْدُود ﴾ [هود : ٧٦] .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف ، هم من أحسن البشر صوراً ، فأقبل اللوطيـة إليه يهـرولون . فلمـا رآهم قال لهم ﴿ يَا قَوْمِ هَؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : ٧٨] ففدي أضيافه ببناته يزوجهم بهن ، خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد . فقال : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ ﴾ . فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد ﴿ لَقَد عَلِمْتَ مَا لَنَا في بَنَاتِكَ مِن حَقٍّ ، وَإنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] . فنفث نبي الله نفثة مصدور ، خرجت من قلب مكروب ، فقال ﴿ لَو أنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِيَ إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ؟ ﴾ فنفس له رسل الله ، وكشفوا له عن

حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم ، ولا إليه بسببهم ، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم ، وهون عليك ، فقالوا ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيلِ [1] وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُم أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ ﴾ [هود : ٨١] فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم وقال : أريد أعجل من هذا ، فقالت الملائكة ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ ﴾ . فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل ، إلى عبده ورسوله جبرائيل ، بأن قلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل ، فقال عز من قائل ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ ﴾[2] . [الحجر : ٧٤] فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ، ونكالا وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥ ـ ٧٧] أخذهم على غرة وهم نائمون ، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقلبت تلك اللذات آلاماً ، فأصبحوا بها يعذبون .

مـآرب كـانت في الحيـاة لأهلهـا   عِذاباً فصارت في المماتِ عَذاباً

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت الشقوات ، تمتعوا قليلاً ، وعذبوا طويلاً ، رتعوا مرتعاً وخيماً ، فأعقبهم عذاباً أليماً ، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين ، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين ، فندموا والله أشدَّ الندامة حين لا ينفع

---

(١) القطع ـ ظلمة آخر الليل .

(٢) هو طين محمى في نار جهنم .

النذم ، وبكوا على ما أسلفوه بذل الدموع بالدم ، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٦] ولقد قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل ، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد ﴾ [هود: ٨٣] .

فيا ناكحي الذكران يهنيكم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا ... فإن لكم زفاً إلى الجنة الحمرا
فإخوانكم ، قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا ، عجلوا ، لكم البشرى
وها نحن أسلافٌ لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبار في نارة الكبرى
فلا تحسبوا أن الذين تكحتموا ... يغيبون عنكم ، بل ترونهم جهراً
ويلعن كلا منكما لخليله ... ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كلا منهما بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

فصل : عقوبة اللواط وعقوبة الزنى

في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى .

أما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً ، فجوابه من وجوه : أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً ، وما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما شرعه عن الله ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

والثاني : أن هذا ينقض بالرجم ، فإنه ثبت بالسنة .

فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه .

قلنا : فينقض عليكم بحد شارب الخمر .

والثالث : أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول ،

فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف ؟ .

وأما قولكم : إنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول الله وإجماع الصحابة . كما تقدم بيانه .

والثاني : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي فتنته تربو على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو سبى ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه ، أو استولى على فكره ونفسه ، فليس في القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود ـ في أحد القولين ـ وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث .

وقد روى أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب قال « لقيت عمي ومعه الراية ، فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله » . قال الترمذي : هذا حديث حسن ، قال الجوزجاني عم البراء اسمه : الحارث بن عمرو .

وفي سنن أبي داود وابن ماجة من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها ، فقال : احبسوه وسلوا من ها هنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة ، وأن من

لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل ، دليله : من وقع على أُمه أو ابنته ، كذلك يقال في وطء ذوات المحارم ، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال ، فكان حده القتل كاللوطي .

والتحقيق : أن يستدل على المسألتين بالنص ، والقياس يشهد لصحة كل منهما ، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعليه الحد ، وإنما اختلفوا في صفة الحد ، هل هو القتل بكل حال ، أو حده حد الزاني ؟ على قولين :

فذهب الشافعي ومالك وأحمد ـ في إحدى روايتيه ـ أن حده حد الزاني .

وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد ، إلا أبا حنيفة وحده ، فإنه رأى شبهة مسقطة للحد .

ومنازعوه يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة . فإنه ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء ، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى ؟ .

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : يجب به الحد ، وهو قول الأوزاعي ، فإن فعله أعظم جرماً وأكبر ذنباً انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة .

فصل : واطئ البهيمة

وأما واطيء البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يؤدب ، ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه ، وهو قول إسحاق .

والقول الثاني : حكمه حكم الزاني ، يجلد إن كان بكراً ، ويرجم إن كان محصناً ، وهذا قول الحسن .

والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطي ، نص عليه أحمد ، فيخرج على

الروايتين في حده ، هل هو القتل حتما أو هو كالزاني ؟ .

والذين قالوا « حده القتل » احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه » .

قالوا : ولأنه وطء لا يباح بحال ، فكان فيه القتل كحد اللوطي . ومن لم ير عليه حداً قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ، ولم يحل لنا مخالفته .

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي : سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة ، فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك .

وقال الطحاوي : الحديث ضعيف ، وأيضاً فراويه ابن عباس ، وقد أفتى بأنه لا حد عليه ، قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث .

ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط ، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء ، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم .

فصل : اللواط والسحاق

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين ، فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة «إذ أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» ولكن لا يجب الحد بذلك، لعدم الإيلاج، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام، كزنى العين واليد والرجل والفم .

إذا ثبت هذا : فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى ﴿ إلاَّ

عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون : ٤] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب المرتد ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم .

فصل : دواء اللواط

فإن قيل : فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا السحر القتال ؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال ؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق ؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق ؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه ؟ إن لامه لائم التذ بملامه ذكراً لمحبوبه وإن عذله عاذل أغراه عذله وسار به في طريق مطلوبه ، ينادي شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بي حيث أنت ، فليس	لي متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني ، فأهنت نفسي جاهداً	ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي ، فصرت أحبهم	إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة	حباً لذكرك ، فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء والداء الذي طلب له الدواء

قيل : نعم، الجواب من رأس «ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله » . والكلام في دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين :

أحدهما : حسم مادته قبل حصولها .

والثاني : قلعها بعد نزوله ، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ، ومتعذر على من لم يعنه الله ، فإن أزمّة الأمور بيديه .

فأما الطريق المانع من حصول هذا الدواء . فأمران :

أحدهما : غض البصر كما تقدم ، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته ، وفي غض البصر عدة منافع :

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده ، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانية : أنه يمنع من وصل أثر السهم المسموم ـ الذي لعل فيه هلاكه ـ إلى قلبه .

الثالثة : أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية عليه ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ، ويبعده من الله ، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر ، فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابعة : أنه يقوي القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامسة : أنه يلبس القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، قال ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ، [النور : ٣٠] ثم قال إثر ذلك ﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، [النور : ٣٥] أي مثل في نوره قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع ، وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب ، فإذا نفد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام .

السادسة : أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، وكان شجاع الكرماني يقول : من عمَّر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال ، لم تخطىء له فراسة ، وكان شجاع هذا لا تخطيء له فراسة .

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، ومن ترك لله شيئا عوضه الله خيراً منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبس بصره لله ، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب ، وضد هٰذا ما وصف الله به اللوطيين من العمَه الذي هو ضد البصيرة فقال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، [الحِجْر : ٧٢] فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعمه الذي هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمه البصيرة وسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى، وسكر مدامة ... ومتى من بـه إفاقـة سكـران ؟

وقال الآخر :

قالوا: جننت بمن تهوى ؟ فقلت لهم: ... العشق أعـظم ممـا بـالمجـانـين
العشق لا يستفيق الـدهـر صـاحبـه ... وإنمـا يصـرع المجنـون في الحين

السابعة : أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة ، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر « الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله » وضد هٰذا تجد في المتبع لهواه ـ من ذل النفس ووضاعاتها ومهانتها وخستها وحقارتها ـ ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه ، كما قال الحسن : « إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [المنافقون : ٨] وقال تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ ، [آل عمران : ١٣٩] والإيمان قول وعمل ، ظاهر وباطن ، وقال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، [فاطر : ١٠] أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة

الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح ، وفي دعاء القنوت « إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت » ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب معصيته .

الثامنة : أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب ، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ، فيمثل له صورة المنظور إليه ، ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يَعِدُه ويمنّيه ويُوقد على القلب نار الشهوة ، ويلي عليها حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب في اللهب ، فمن ذٰلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات ، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ، ولهٰذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة : أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم ، كما أراه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسعة : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها ، وإطلاق البصر ينسيه ذٰلك ويحول بينه وبينه ، فينفرط عليه أمره ، ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، [الكهف : ٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشرة : أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انتقال أحدهما عن الآخر ، وأن يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فإذا فسد القلب فسد النظر ، وإذا فسد النظر فسد القلب ، وكذٰلك في جانب الصلاح ، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات ، والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذٰلك .

فهٰذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما وراءها .

الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب : اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ، ويحول بينه وبين الوقوع فيه ، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هٰذا المحبوب ، أو خوف ما حصوله أضر من فوات هٰذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هٰذا المحبوب ، وفواته أضر عليه من فوات هٰذا المحبوب ، لم يجد بداً من عشق الصور .

وشرح هذا : أن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هٰذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه .

أحدهما : بصيرة صحية يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما ، وهٰذا خاصة العقل ، ولا يعد عاقلا من كان بضد ذٰلك ، بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه .

الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هٰذا الفعل والترك ، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت ، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على أشياء لا تنفع ، أمن خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ، ومثل هٰذا لا ينتفع به غيره ، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين ، فقال تعالى ، وبقوله يهتدي المهتدون منهم ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] وهٰذا هو الذي ينتفع بعلمه ، وينتفع به الناس ، وضده لا ينتفع بعلمه ، ولا ينتفع به غيره ، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره ، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره ، والثاني قد طفىء نوره ، فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته ، والثالث يمشي في نوره وحده .

فصل : توحيد المحبوب

إذا عرفت هٰذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع للقلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً ، بل هما ضدان لا يتلاقيان . بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه ، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب

على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه ، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة له إلى محبته ، أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها ، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك مع محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه ، ويعده كاذباً في دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلا لصرف كل قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال ؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها ، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده ، فليختر العبد إحدى المحبتين ، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصلبان ، أو المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو محبة العشراء والإخوان ، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان ، فالإنسان عبد محبوبه كائناً من كان ، كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ، فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟﴾ [الجاثية : ٢٣] .

فصل : خاصية التعبد

وخاصية التعبد : الحب مع الخضوع ، والذل للمحبوب ، فمن أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له ، بل التعبد أحد مراتب الحب ، ويقال له : التتيم أيضاً ، فإن أول مراتبه العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم[1] ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام المخلس[2]

ثم بعدها الصبابة ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب ، قال الشاعر :

تشكّى المحبون الصبابة ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام ، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمي الغريم غريماً ، لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : ٦٥] وقد أولع المتأخرون باستعمال هٰذا اللفظ في الحب ، وقل أن تجده في أشعار العرب ، ثم العشق وهو إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ، ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحثُّ السفر ، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر « أنه صلى صلاة فأوجز فيها ، فقيل له في ذٰلك ، فقال : أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو بهن : اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ولا

---

(١) جمع تميمة : وهي ما يطلق على الأطفال لمنع الحسد والجن وغيرهما

(٢) الأفنان : جمع فنن ، وأصله الغصن .

فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وفي أثر آخر « طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » وهٰذا هو المعنى الذي عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ ﴾ ، [العنكبوت : ٥] لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه ، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه ، ضرب لهم أجلا وموعداً للقائه ، تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ، [النحل : ٩٧] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذٰلك أضعافاً مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله ، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه . وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه ، فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي ، وبه يتحرك ، وبه يسكن ، وبه يحيى ، وبه يموت ، وبه يبعث ، كما في صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فتضمن هٰذا الحديث الشريف الإلٰهي ـ الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به ـ حصر أسباب محبته في أمرين : أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل .

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هٰذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له .

ولا ريب أن هٰذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشي به ، فهو في قلبه ومعه ، وأنيسه وصاحبه ، فالباء ههنا للمصاحبة ، وهي مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة حالية لا علمية محضة .

وإذا كان المخلوق يجد هٰذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك في عيني ، وذكرك في فمي ومثواك في قلبي ، فأين تغيب ؟

وقال آخر :

ومن عجب أني أحن إليهم فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معي
وتطلبهم عيني ، وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي ، وهم بين أضلعي

وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت: غبت ، فقلبي لا يصدقني إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت، قال الطرف : ذا كذب فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه المحبة حتى يصير

أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قال :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فإن هٰذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل . والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله وبصره بالله كان محفوظاً في إدراكه وكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذٰلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذٰلك حركة اليد والرجل التي لا بد للعبد منهما ، فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار ؟ وقد يستغني العبد عنها إلا حيث أمر بها .

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله .

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله « كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها . ورجله التي يمشي بها » تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده به في إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال « فبي يسمع ، وبي يبصر » ولم يقل : فلي يسمع ولي يبصر ، وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ، إذ هي أدل على الغاية ووقوع هٰذه الأمور لله ، وذٰلك أخص من وقوعها به ، وهٰذا من الوهم والغلط ، إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة ، فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم ، وإنما الباء ههنا للمصاحبة ، أي إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه ، كقوله في

الحديث الآخر « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، [التوبة : ٤٠] وقول النبي « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وقوله تعالى ﴿ وإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، [العنكبوت : ٦٩] وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ ، [النحل : ١٢٨] وقوله ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ ، [الأنفال : ٤٦] وقوله ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، [الشعراء : ٦٢] وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، [طه : ٤٦] .

فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت عليه المخاوف في حقه أماناً ، فبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الهموم ، والغموم والأحزان : فلا هم مع الله ، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه .

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه ، فقال « ولئن سألني لأعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه » أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب إلي بمحابي ، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به ويستعيذني أن يناله ، وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماتة عبده ، لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ، ولكن مصلحته في إماتته ، فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصحه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة في سلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأبيه (اخرج منها) إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان في كل منبت شعرة س العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده .

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل

فصل : آخر مراتب الحب

ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال : تيمه الحب ، إذا عبده ، ومنه تيم الله أي عبد الله ، وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم : طريق معبد أي مذلل قد ذللته الأقدام ، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية ، فلا منزل له أشرف منها .

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه ، وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدي بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : ١٩] وقال ﴿ وإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ ، [البقرة : ٢٣] وقال ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَى ﴾ [الإسراء : ١] وفي حديث الشفاعة « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له ، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ؟ قَالُواْ : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ ﴾ ، [البقرة : ١٣٠ - ١٣٣] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك وأصل الشرك بالله : الإشراك في المحبة ، كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم .

وقيل : بل المعنى أنهم أشد حباً لله ، فإنهم وإن أحبوا لله ، ولكن لما شركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ، كما تقدم .

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، [يونس : ٣] وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ، أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ ، [السجدة : ٤] وقال تعالى ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] وقال في الإفراد ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ؟ قُلْ : لِلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ ، [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] وقال تعالى ﴿ مِّن وَرَائِهِم جَهَنَّمُ ، وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً ، وَلاَ مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، [الجاثية : ١٠] .

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله ، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله .

فهذا لون وذاك لون ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق

الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقصود : أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة ، بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول ـ بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء ـ لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله ولله ، كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : أنه قال « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » . وفي لفظ في الصحيحين « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال ـ : أن يكون اللهُ ورسولهُ أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

وفي الحديث الذي في السنن « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفي حديث آخر « ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه » . فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

فصل : أنواع المحبة

وهٰهنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها ، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها .

أحدها : محبة الله . ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحب الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرج من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما

يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه ، وهو المحبة الطبيعية ، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله ، وشغلت عن محبته ، كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، [المنافقون : ٩] وقال تعالى ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، [النور : ٣٧] .

فصل : كمال المحبة

ثم الخُلَّة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه ، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما ، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد ، كما قال صلى الله عليه وسلم « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو كنتُ متخذاً منْ أهل الأرض خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

وفي حديث آخر « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته » .

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، وتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب ، فلما بادر الخليل إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود فرفع الذبح وفدّي الولد بذبح عظيم ،

فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لا بد أن يبقي بعضه أو بَدَله كما أبقى شريعة الفداء ، وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال « لا يبدل القول لديَّ ، وهي خمس في الفعل وهي خمسون في الأجر » .

وأما ما يظنه بعض الغالطين ، أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله ، فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلة خاصة ، والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب وغيرهم .

وأيضاً فإن الله سبحانه ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، [البقرة : ٢٢٢] و ﴿ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ ، [آل عمران : ١٤٦] و ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، [آل عمران : ١٤٨] و ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ، [المائدة ٤٢] والشاب التائب حبيب الله ، وخلته خاصة بالخليلين ، وإنما هٰذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل : إيثار الأعلى

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه ، ولٰكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله ، أو لخلاصه من مكروه .

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

ولا يتم له هٰذا إلا بأمرين : قوة الإدراك ، وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذٰلك

والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك ، بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه ، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى ، فقد وفق لأسباب السعادة .

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته ، وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ، ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروة فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه ، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته .

وجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة .

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه ، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهي ، وهو الذي يسمى الكف ، وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك وهل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والتحقيق أنه قسمان ، فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمي ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي .

فصل : إيثار الأنفع

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحي لما فيه من حصول المنفعة التي يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال ، شفى صدره ، وشفى قلبه ، وقال :

هي الشفاء لدائي لـو ظفرت بهـا وليس منهـا شفـاء الـداء مبـذول

وهذا مطلـوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم ، ولٰكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذاتها ، ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهٰذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر في العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى الّتي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء .

قال بعض العلماء « فكرت فيما يسعى فيه العقلاء فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقـهم في تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهٰذا بالأكل والشرب ، وهٰذا بالتجارة والكتب ، وهٰذا بالنكاح ، وهٰذا بسماع الغناء والأصوات المطربة ، وهٰذا باللهو واللعب ، فقلت : هٰذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولٰكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر في جميع هٰذه الطرق طريقاً موصلة إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فإن سالك هٰذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء ، وإن فاته فاته كل شيء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنإ الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هٰذه الطريق ، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته ، وبالله التوفيق »

فصل : أقسام المحبوب

والمحبوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره ، والمحبوب لغيره لا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه ، دفعاً للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شيء يُحَب لذاته إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فإنها تبع لمحبته سبحانه ، وهي من لوازم محبته ، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما

يحبه ، وهٰذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والمحبة التي لا تنفع بل قد تضر .

فاعلم أنه لا يُحَب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها ، وبغضه وكراهته بحسب قوة هٰذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها ، فهٰذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته ، فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذٰلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشيء أحبُّ إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذٰلك . فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة لا تمزق ولا رياضة .

والمحبوب لغيره قسمان أيضاً : أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثاني : ما يتألم به ولٰكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب ، كشرب الدواء الكريه ، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم القِتَالُ ، وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والدعة والرفاهة ، وذٰلك شر لها لإفضائه إلى فوات هٰذا المحبوب ، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها ، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه ، فإن ذٰلك قد يكون شراً له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها ، وإن كانت منقطعة .

فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه ، فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه قد

اجتمع فيه داعي الترك من وجهين .

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان ـ وهما معترك الابتلاء والامتحان ـ فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها ، وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين ، وهو إلى هٰذا مرة ، وإلى هٰذا مرة ، وهٰهنا محل الابتلاء شرعاً وقدراً ، فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت : حي على الفلاح ، عند الصباح يحمد القوم السُّرَى ، وفي الممات يحمد العبد التقي ؛ فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول : يا نفسي اصبري ، فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ، ويذهب هٰذا كله ويزول .

فصل : الحب أصل كل عمل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هٰذه المحبة ، أو شبهة تمنع كمال التصديق ، فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر ؛ وإن لم تعارضه قدحت في كماله ، وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً في العزيمة والطلب ، وهي تحجب الواصل ، وتقطع الطالب ، وتنكس الراغب ، فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُم وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ؟ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هٰذه المعاداة ، فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ . وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً ، حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ ، [الممتحنة : ٤] وقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾ ، [الزُّخرف : ٢٦ ـ ٢٨] أي جعل هٰذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهي كلمة : لا إلٰه إلا الله ، وهي التي وَرَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسمٰوات ، فطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أُسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هٰذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهون ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة » .

وروح هٰذه الكلمة وسرها : إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إلٰه غيره : بالمحبة والاجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذٰلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه ، ويجتمع ذٰلك في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ، فهٰذا هو تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، ولهٰذا حرم على النار من شهد أن لا إلٰه إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هٰذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ ، [المعارج : ٣٣] فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه ، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن ، فروح ميتة ، وروح مريضة إلى

الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن ، وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحاً » فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء ؟ وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه هٰهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً ، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا ، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً من ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، وطيب الحياة جنة الدنيا ، وقال تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ ، [الأنعام : ١٢٥] فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ؟ وأي عذاب أمرّ من ضيق الصدر ؟ وقال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون ، لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، [يونس : ٦٢ - ٦٤] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً ، وأنعمهم بالا ، وأشرحهم صدراً ، وأسرّهم قلباً ، وهٰذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » . ومن هٰذا قوله صلى الله عليه وسلم « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » . ومن هٰذا قوله ـ وقد سألوه عن وصاله في الصوم ـ

« إني لست كهيئتكم ، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقني » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه ، ويغني عنه ، كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها ... روح اللقاء ، فتحيا عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعدمه آلم شيء له وأشده عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره ، واستغراقها في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها ، وهذه منزلة السكران المتغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها ؟ فلو قضى الله سبحانه (عليه) بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، وهذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره ؟ فتبارك من حمّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي .

فاعرض (الآن) على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك ؟ هذا ومنه كل عوض ، فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

وفي أثر إلٰهي « ابن آدم ، خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء »

فصل : المحبة المحمودة والمحبة المذمومة

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، وما لا تصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذٰلك الإنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، [البقرة : ١٦٥] .

وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله التي يسوى المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ومحبة ما أحب ، وهٰذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها ، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين ، وتفصيل أعمال

النوعين وأوليائهم ومعبود كل منها ، وإخباره عمن فعله بالنوعين ، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، والقرآن جاء في شأن النوعين .

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم : إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له ، المتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضوع والذل له ، والإجلال والتعظيم ، ولوازم ذلك : من الطاعة ، والتقوى .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي ، قال : الآن يا عمر » فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه ؟

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها ، وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشيء قد يحبُّ من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له ، و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] والتأله : هو المحبة والطاعة والخضوع .

فصل : الحب أصل الحركة

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة ، فهي علتها الفاعلية والغائية .

وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية .

والحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي ، فهو يتحرك للعود إليه ، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره ، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرك ، فهو أصل الحركتين .

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين وهي تابعة للإرادة والمحبة .

والدليل على (انحصار) الحركات في هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية ، وإن لم يكن له شعور بها ، فإما أن تكون على وفق طبعه أولاً ، فالأولى هي الطبيعية ، والثانية القسرية ، إذا ثبت هذا فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الاجنة في بطون أمهاتها ، فإنما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً ، كما دل على ذلك نصوص من القرآن والسنة في غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة : فإن الله وكّل بالرحم ملائكة ، وبالقَطْر ملائكة ، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة ، كاتبين عن يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه ، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره ، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ، ووكل بالجبال ملائكة ، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أُمرت به وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها ، وملائكة بالنار كذلك ، فأعظم جند الله الملائكة ، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، وليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، قال تعالى إخباراً عنهم ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : ٦٤] وقال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي

السَّمٰواتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَنْ يشاءُ ويرضى ﴾ [النجم : ٢٦] وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليقة كما قال تعالى : ﴿ وَٱلصَّافَاتِ صَفّاً ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرَاً ، فَٱلتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ ، [الصَّافات : ١ ـ ٣] وقال ﴿ وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ، فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ، وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْراً ، فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقاً ، فَٱلْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ، عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ ، [المرسلات : ١ ـ ٦] وقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّازِعَاتِ غَرقاً ، وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ، وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً ، فَٱلسَّبِقَاتِ سَبْقاً ، فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [النازعات : ١ ـ ٥] وقد ذكرنا معنى ذٰلك وسر الإقسام به في كتاب « التبيان في أقسام القرآن » .

وإذا عرف ذٰلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال هي عبادة منهم لرب الأرض والسمٰوات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها : فلولا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت الكواكب النيرات ، ولا هبت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحب الحاملات ، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت المدبرات والمقسمات ، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسمٰوات ، وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ ، [الإسراء : ٤٤] .

فصل : الحب لله وحده

فإذا عرف ذٰلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده ، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده .

ولهٰذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ولم يقل سبحانه : ولكانتا معدومتين ، ولا قال : لعدمتا ، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد ، لما وجدتا لٰكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن

يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما ، فلو كانِ للعالم إلٰهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فإن كل إلٰه كان يطلب مغالبة الآخر ، والعلو عليه ، وتفرده دونه بإلٰهيته ، إذ الشركة نقص في كمال الإلٰهية ، والإلٰه لا يرضىٰ لنفسه أن يكون إلٰهاً ناقصاً فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإلٰه وحده والمقهور ليس بإلٰه ، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ، ولم يكن تام الإلٰهية فيجب أن يكون فوقهما إلٰه قاهر لهما حاكم عليهما ، وإلا ذهب كل منهما بما خلق ، وطلب كل منهما العلو على الآخر ، وفي ذٰلك فساد أمر السمٰوات والأرض ومن فيهما ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، (والشُّوْل إذا كان فيه فحلان) .

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهٰذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم ، وانفراد كل منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض ، فصلاح السمٰوات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، [المؤمنون : ٩١ - ٩٢] وقال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢١ - ٢٣] وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ ، [الإسراء : ٤٢] فقيل ، لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، ويدل عليه قوله في الآية الأُخرى ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

قال شيخنا رضي الله عنه : والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له ،

قال : ويدل على هذا وجوه :

منها : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ ، [الإسراء : ٥٧] أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ترجون رحمتي وتخافون عذابي ، فلماذا تعبدونهم من دوني ؟ .

الثاني : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً . بل قال ﴿ لَّأَبْتَغَوْا إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وهٰذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب ، كقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ ، [المائدة : ٣٥] وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى ، كقوله ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ ، [النساء : ٣٤] .

الثالث : أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه ، فقال : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟

فصل : آثار المحبة

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، نافعة أو ضارة من الوجد ، والذوق ، والحلاوة ، والشوق، والأنس ، والاتصال بالمحبوب والقرب منه ، والانفصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذٰلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهٰذه المحبة هي عنوان السعادة ، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ، وهي عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذٰلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها . وذلك ظلمٌ من الإنسان

نفسه ، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما في محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين : اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة وشهوة ، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى حصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لأقواهما .

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متنوعة ، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها . فإن بكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن انبسط نفعه ، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة .

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد .

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية ، فكل ما تولّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١] .

فأخبر سبحانه في الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح ، وأخبر في الثانية : أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم

أنفسها ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثاني : نفس أعمالهم فكتب لهم .

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ، ليعلم ما له وما عليه .

سيعلم يوم العرض أي بضاعة أضاع ، وعند الوزن ما كان حصلا

فصل : المحبة أصل كل دين

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهي أصل كل دين سواء أكان حقاً أو باطلاً ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة ، ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، [القلم : ٤] ، قال الإمام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس « لعلى دين عظيم » وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » والدين فيه معنى الإذلال والقهر ، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة ، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل ، كما يقال : دنته فدان ، أي قهرته فذل ، قال الشاعر :

هو دان الرباب إذ كرهوا الد ين فأضحوا بعزة وصيال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى ، كما يقال : دِنت لله ودِنت لله ، وفلان لا يدين الله ديناً ، ولا يدين الله بدين ، فدان الله : أي أطاع الله وأحبه وخافه ، ودان لله : تخشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء ، بخلاف الدين الظاهر ، فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر .

وسمى الله سبحانه يوم القيامة (يوم الدين) فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم ، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ،

[الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين ، وهٰذه الآية تحتاج إلى تفسير ، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ، ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله ، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول . لما بينهما من التلازم ، فكل ملزوم دليل على لازمة ، ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم ، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقروا بأن لهم ربّاً قاهراً متصرفاً فيهم ، كما سيميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقروا بربٍّ هٰذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمري والجزائي ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم ؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته : أي فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر ، تمضي عليكم أحكامه ، وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ، ووحدانيته ، وتصرفه في عباده ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم .

والدين دينان . دين شرعي أمري ، ودين حسابي جزائي . وكلاهما لله وحده ، فالدين كله لله أمراً أوجزاء ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه سبحانه وتعالى وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه .

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً » فهٰذا الدين قائم ، بالمحبة وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها

أسس . وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ، ويحب من يحبها ، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه . كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ ، وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونَ .إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل ، والحكمة والرحمة ، والإحسان ، والفضل . ووضع الثواب موضعه والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء ـ أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رؤوس الملإ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، وذل كل شيء لعظمته ، فقال : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره ، وهو في قهره وقبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ؟ وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، في كل ما يقضيه ويقدره ، فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه ،

فإنه على صراط مستقيم ، فهو سبحانه ماض في عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته ، وهو على صراط مستقيم في هٰذا وهذا .

وفي الحديث الصحيح « ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك ، أسألُكَ اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمّته ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي . إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجاً ، قالوا : يا رسول الله ، ألا نتعلمهن ؟ قال : بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن » وهٰذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض في عبده ، وكلا القضاءين عدل فيه ، فهٰذا الحديث مشتق من هٰذه الآية ، بينهما أقرب نسب .

فصل : عشق الصور

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم ، وكما سنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله ، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة ، وذٰلك من وجوه :

أحدها : ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل

العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهٰذا لا يذم إذا صادف حلالاً ، بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « حُبب إليَّ من دنياكم النساء ، والطيب أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » .

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه بين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث أن كل واحد من هٰذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا أبية ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً ، كما قال الشاعر :

وزادني كَلفاً في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنِع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، اللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها :

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن . أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها فاله ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة الراغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطول السرار ، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السرار بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿ وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ . [يوسف : ٣٣] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصَّغار ، وهٰذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن ووقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغير والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا ﴾ وللمرأة ﴿ ٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ، إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهٰذا لم يظهر منه غيرة .

ومع هٰذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ، [يوسف : ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذٰلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهٰذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفي هٰذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة ، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل .

فصل : عشق اللوطية

والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم اللوطية، كما قال تعالى ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ، قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ، قَالُوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ، لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، [الحِجْر : ٦٧ ـ ٧٢] فهذه الأمة عشقت . فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ، ولم يبال بما في عشقه من الضرر .

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء العضال ، والسم القتال الذي ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من إساره ، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره ، وهو أقسام :

تارة يكون كفراً ، كمن اتخذ معشوقة نداً ، يحبه كما يحب الله ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه ؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه ، فإنه من أعظم الشرك . والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك ، وعلامة هذا العشق الشركي الكفري : أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه ، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وحق ربه وطاعته ، قدم حق معشوقه على حق ربه ، وآثر رضاه على رضاه ، ويذل له أنفس ما يقدر عليه ، ويذل لربه ـ إن بذل ـ أردأ ما عنده . واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه ، وجعل لربه ـ إن أطاعه ـ الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك ، ثم ضع حالهم في كفة ، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة ، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل ، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه ، كما قال العاشق الخبيث .

يترشَّفنَ من فمي رشفات هنَّ أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه وقد مر .

ولا ريب أن هٰذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبداً محضاً من كل وجه لمعشوقه : فقد رضي هٰذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله ، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع ، وهٰذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هٰذا العشق مفسدة الشرك ، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أُبتلىٰ بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إليَّ من أن ابتلي فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله .

فصل : دواء العشق

ودواءُ هٰذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلي به من هٰذا الداء المضاد للتوحيد (إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله ، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً) ، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذٰلك عنه ، وأن يراجع بقلبه إليه ، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله ، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، [يوسف : ٢٤] .

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه ، فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور ، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ ، كما قال :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة ، وجب عليه أمران ، أمر علمي وأمر عملي . فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه

أحدهما : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع في القلب هٰذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر ، ويكون السلطان والغلبة له

والثاني : عذاب قلبه به ، فإن من أحب شيئاً غيرَ الله عُذِّب به ولا بد ، كما قيل .

فما في الأرض أشقى من محب — وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين — مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم — ويبكي إن دَنَو حذر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق — وتسخن عينه عند التلاقي

والعشق ، وإن استعذبه صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث : أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان ، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه ، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب ، كما قال بعض هؤلاء .

ملكت فؤادي بالقطيعة والجفا — وأنت خليّ البال تلهو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق — وعيش الخليّ عيش المسيب المطلق
طليق برأي العين وهو أسير — عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى في صورة الحي غاديا — وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهم قلبه — فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه ، فليس شيء أضيع لمصالح الدين

والدنيا من عشق الصور ، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله ، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثاً وتشتيتاً له ، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين ، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب ، وسبب ذلك : أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بُعد من الله . فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور ، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات ، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى عليه ، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده ، وبعد منه وليه ، ومن لا سعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟

السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسواس ، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها ، وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها مشاهد بالعيان ، وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات ، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرا به إلا ذلك ؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل :

قالوا : جننتَ بمن تهوى ، فقلت لهم : العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرح المجنون في الحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها ، إما إفساد معنوياً أو صورياً ، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب ، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان ، فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعاً « حبك الشيء يعمي ويصم » فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه ، فلا تسمع الأذن ذلك ، والرغبات تستر العيوب ، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه ، فشدة

الرغبة عشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به ، كما قيل :

حويتك إذ عيني عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسي الومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه ، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا في الإسلام .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

وأما فساد الحواس ظاهراً فإنه يُمرض البدن وينهكه ، وربما أدى إلى تلفه ، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق .

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد لحماً على عظم ، فقال : ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه .

الثامن : ان العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة ، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر ، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك ، فتعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لجاجة   يأتي بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى   جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب وقتل ، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى ، كما قيل :

وعش خالياً فالحب أوله عنىً وأوسطه سقم ، وآخره قتل

وقال الآخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

والذنب له ، فهو الجاني على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر « يداك أوكتا ، وفوك نفخ »

فصل : مقامات العاشق

والعاشق له ثلاث مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء .

فأما مقام ابتدائه ، قالوا : يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدراً وشرعاً ، فإن عجز عن ذٰلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهٰذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذٰلك ، وأن لا يفشيه إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس ، فيجمع بين الشرك والظلم ، فإن الظلم في هٰذا الباب من أعظم أنواع الظلم ، وربما أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله ، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب ، وأكثر الناس يصدق في هٰذا الباب بأدنى شبهة ، وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون ، وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هٰذا الباب يفيد القطع اليقيني ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض ، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقاً لجزموا أن ذٰلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل

والشبه والأوهام (والأخبار) الكاذبة ، كجزمهم بالحسيات المشاهدة ، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبه المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات ، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر ، حتى هلك من هلك ، ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر .

والمقصود : أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه ، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذلك الواسطة ديوثاً ظالماً ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الرائش ـ وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة ـ فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل ، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض ؟ فإنه كثيراً ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه ، وكم من قتيل طُلَّ دمه[1] بهذا السبب من زوج وسيد وقريب ، وكم خُبِّبَتِ[2] امرأة على بعلها وجارية وعبد سيدهما ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه ، وهو من أكبر الكبائر ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو أن يستام على سوم أخيه ، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما ؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الديايثة لا يرون ذلك ذنباً ، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ، ففي ذلك من إثم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة ، إن لم يرْبُ عليها ، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة ، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على

---

(١) طل دمه : أي هدر ، فلم يقتص به ولم تؤخذ له دية

(٢) خبب المرأة على زوجها : ما زال يخدعها ويغويها حتى أفسدها عليه .

فراشه . أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله . ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه ، فيا له من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة ، فإن كان ذلك حقاً لغازٍ في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة ، وقيل لـه « خذ من حسناته ما شئت » كما أُخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أي فما تظنون يبقى له من حسناته ؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكـون المظلوم جاراً ، أو ذا رحم محرم ، تعدد الظلم فصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وإيذاء الجار ، ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه

فـإن استعان العـاشق على وصال معشـوقه بشيـاطين من الجن ـ إما بـسحـر أو استخدام أو نحو ذلك ـ ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر ، فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده ، وهذا ليس ببعيد من الكفر

والمقصود : أن التعاون في هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان .

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فأمر لا يخفى ، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشـوق أغراض أُخـر يريـد من العاشق إعانته عليها ، فلا يجد من إعانته بداً ، فبقي كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان ، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متـوقفاً على ظلمه ، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه من ظلم وعدوان وبغي ، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله ، وفي تحصيل مال من غير حله ، وفي استطالته على غيره ، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً ، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق

للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك ، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .

فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور ، وربما حمل على الكفر الصريح ، وقد تنصر جماعة ممن نشئوا في الإسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح ، فتن بها ونزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هي نصرانية فإن دخلتَ في ديني تزوجت بك ، ففعل ، فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم ، فسقط منها ، فمات ، ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له .

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها ، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها ، فهنالك ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، [إبراهيم : ٢٧] .

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه (ما فيه) وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعدٍ إلى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك ، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها ، والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف ، وذلك ظلم منه ، بأن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه سوء العذاب ، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره ، فكم للعشق من قتيل من الجانبين ، وكم قد أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولده ، فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقاً لغيرها اتخذت هي معشوقاً لنفسها ، فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا .

فعلى العـاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلـك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها ، فمن فعل ذٰلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها ، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها ، فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه ، فإن أول أسباب العشق الاستحسـان سواء تـولد عن نـظر أو سماع ، فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإياس من ذٰلك لم يحدث له العشق ، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذٰلك ، فإن أطال مع ذٰلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله ، إما خوف ديني ، كدخول النار ، وغضب الجبار واحتقاب الأوزار ، وغلب هٰذا الخوف على ذٰلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق ، فإن فاته هٰذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه أو ماله أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس ، وسقوطه من عين من يعز عليه ، وغلب هٰذا الخوف لداعي العشق دفعه ، وكذلك إذ خـاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذٰلك المعشوق وقدم محبته على محبة ذٰلك المعشوق اندفع عنه العشق ، فإن انتفى ذٰلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك انجذب إليه القلب بكليته ومالت إليـه النفس كل الميـل . فإن قيـل : قد ذكـرتم آفات العشق ومضـاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها : رقة الطبع ، وترويح النفس ، وخفتها ، وزوال ثقلها ، ورياضتها ، وحملهـا على مكارم الأخـلاق ، من الشجاعـة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب ؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي : إن ابنك قد عشق فلانة . فقال : الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي .

وقال بعضهم : العشق داء أفئدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لذى مروءة وخليقة طاهرة ، أو لذى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لذى أدب بارع وحس ناصع .

وقال آخر العشق يشجع جنان الجبان ، ويصفي دهن الغبي ، ويسخي كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصفي كدر القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قال الشاعر :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم   إذا غاله من جانب الحب غائله
كريم يميت السر ، حتى كأنه   إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يمسي سقيماً لعلها   إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلا   لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق .

وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبيعي ، وإضماره تكليفي .

وقال آخر : من لم يهيج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج إلى علاج ، وأنشدوا في ذلك :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فمالك في طيب الحياة نصيب

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فأنت وعير في الفلاة سواء

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فقم فاعتلف تبناً ، فأنت حمار

وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة : عفُّوا تشرفوا ، واعشقوا تظرفوا .

وقيل لبعض العشاق : ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى ؟فقال · كنت أمتع طرفي بوجهه ، وأروح قلبي بذكره وحديثه ، وأستر منه ما لا يحب كشفه ، ولا أصير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده ، ثم أنشد :

أخلو بـه ، فـأعِفُّ عنه تكـرمـاً   خوف الديانة ، لست من عشـاقه
كـالمـاء في يـد صـائم يلتـذّه   ظمـأ ، فيصبر عن لـذيذ مـذاقـه

وقال أبو إسحـاق بن إبراهيم : أرواح العشـاق عطرة لـطيفة ، وأبـدانهم رقيقة خفيفة ، نزهتهم المؤانسة ، وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول ، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا .

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك ، وإن أكثرت منه قتلك ، وفي ذلك قيل :

خليلي ، إن الحب فيـه لـذاذة   وفـيـه شـقـاء دائـم وكـروب
على ذاك مـا عيش يـطيب بغيـره   ولا عيش إلا بـالحبيـب يـطيب
ولا خيـر في الدنيـا بغير صبـابـة   ولا في نعيم لـيس فيـه حـبيـب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال : مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول :

وهويته من قبـل قطع تمـائمي   متمـايلاً مثـل القضيب النـاعـر

فسألها : أحـرة أنت أم مملوكة ؟ قـالت : بل مملوكـة ، فقال : من هـواك ؟ فتلكأت ، فأقسم عليها ، فقالت :

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها   قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال : هؤلاء فتن الرجال . وكم والله قد مات بهن كريم ، وعطب بهن سليم .

وجـاءت جارية إلى عثمان بن عفـان رضي الله عنه تستـدعي على رجـل من

الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت ، كَلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه ، فما أنفكُّ أراعيه ، فقال عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك ، أو أعطيك ثمنها من مالي ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق ، وإنما الكلام في العشق العفيف ، من الرجلِ الظريف ، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام ، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام ، فهذا عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى أمره ، ولم ينكر عليه ، وعُدَّ ظالماً من لامه ، ومن شعره :

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقوام ، ولومهم ظلم
فنَمَّ عليك الكاشحون ، وقبلهم ... عليك الهوى قد نمَّ ، لو ينفع الكَتم
فأصبحت كالهندي إذ مات حسرة ... على إثر هند ، أو كمن شفه سقم
تجنبت إتيان الحبيب تأثماً ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها ، قد كنت تزعم أنه ... رشاد ، ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجباً بها ، وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له ، فتأبى ، ولم تزل الجارية في نفس عمر ، فلما استُخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ، وكانت مثلاً في حسنها وجمالها ، ثم دخلت على عمرٍ وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتي فلانة ، وسألتها فأبيت عليك ، والآن فقد طابت نفسي لك بها ، فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه ، وقال : عجلي عليّ بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً ، وقال لها : ألقي ثيابك ، ففعلت ، ثم قال لها : على رِسْلك ، أخبريني لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرم الحجاج

عاملاً له بالكوفة مالاً ، وكنت في رقيق ذلك العامل ، فأخـذني وبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وهل ترك ولـداً ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة ، فقال : شُدّي عليك ثيابك واذهبي إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إليَّ فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إليّ جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك ، فلم يرفعْ إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له : إياك وإياها ، فلعل أباك قد ألم بها ، فقال الغلام : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لي بها ، قال : فابتعها مني ، قال : لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت : أين وَجْدُك بي يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد . ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهري العـالم المشهور في فنـون العلم : من الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والأدب ، وله قول في الفقه ، وهو من أكابر العلماء ، وعشقه مشهور .

قال نِفْطَوَيْه : دخلت عليه في مرضه الذي مات فيـه ، فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثني ما ترى ، فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتـاع على وجهين : أحدهمـا : النظر المبـاح ، والآخر : لـذة المحظورة ، فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى ، وأما اللذة المحظورة ليمنعني منها ما حدثني أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مُسهر عن أبي يحيى القتّات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه « مَنْ عَشِقَ وكتم وعفَّ وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة » .

ثم أنشد :

انـظر إلى السحـر يجـري في لـواحـظه وانـظر إلى دَعَج في طـرفه السـاجي

وانظر إلى شعرات فوق عارضه   كأنهن نِمَالٌ دَبٌّ في عاج

ثم أنشد :

ما لهم أنكروا سواداً بخديه   ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خده برد الشعر   فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له : نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر ؟ فقال : غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه ، ثم مات من ليلته ، وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة .

ومن كلامه فيه : « من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه ، وذلك أن أول روعات اليأس تأتي القلب وهو غير مستعد لها ، فأما الثانية فتأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى » .

والتقى هو وأبو العباس بن سُريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير ، فتناظرا في مسألة من الإيلاء ، فقال له ابن سريج ، أنت بأن تقول : من دامت لحظاته كثرت حسراته ـ أحذق منك بالكلام على الفقه ، فقال : لئن كان ذلك فإني أقول :

أنزه في روض المحاسن مقلتي   وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه   يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري   فلولا اختلاسي وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم   فلست أرى وُدّاً صحيحاً مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج : بم تفخر علي ؟ ولو شئت لقلت :

ومطاعم كالشهد في نغماته   قد بتُّ أمنعه لذيذ سناته
بصبابة وبحسنه وحديثه   وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده   ولي بخاتم ربه وبراته

ففال أبو بكر يحفظ عليه الورير ما أقربه حتى يقيم شاهدين على أنه ولي بخاتم ربه وبراءته ، فقال ابن سريج يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك :

أنـزه في روض المحـاسن مقلتي وأمنـع نفسي أن تنـال محـرمـا

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتما لطفاً وظرفاً ، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه ، وجاءته يوماً فتيا مضمونها :

يـا ابن داود ، يـا فقيـه العـراق أفتنـا فـي قـواتـل الأحـداق
هـل عليهـا بمـا أنت من جنـاح أم حـلال لـهـا دم العـشـاق ؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين فقال :

عنـدي جـواب مسـائـل العشـاق فاسمعه من قَرْحِ الحشا مشتاق
لمـا سألت عن الهـوى هيجتني وأرقت دمعـاً لـم يكـن بمـراق
إن كـان معشوقـاً يعذب عـاشقـاً كـان المعـذب أنعم العشـاق

قال صاحب كتاب منازل الأحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد صاحب كتاب الإنشاء . وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيباً :

قـل لمن جـاء سـائـلاً عـن لحـاظ هـن يـلعـبـن فـي دم الـعـشـاق
ما على السيف في الورى من جناح إن ثـنـى الـحـد عـن دم مـهـراق
وسـيـوف الـلحـاظ أولـى بـأن تـصـفـح عـمـا جـنـت عـلى الـعـشـاق
إنـمـا كـل مـن قـتـلن شـهـيـد ولـهـذا يـفـنـى ضـنـىً وهـو بـاق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب بن أحمد الكلوذاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله :

قـل لـلإمـام أبي الخـطاب مسـألـة جـاءت إليـك ومـا خلق سـواك لهـا

مــاذا على رجــل رام الصــلاة فـمــذ ... لاحت لخـاطـره ذاتُ الجمــال لهـا[1]

فأجاب تحت السؤال :

قــل لــلأديب الــذي وافى بمســألــة ... سـرت فؤادي لمـا أن أصحتُ لهـا
إن الــتي فــتـنـــتـــه عــن عــبــادتــه ... خـــريــدة ذات حـسن فـــانثنى ولهـــا
إن تــاب ثــم قضـى عـنــه عـبــادتـه ... فـرحمــة الله تغشى من عصـى ولهــا

وقال عبد الله بن معمر القيسي : حججت سنة ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا جالس بين القبر والمنبر إذ سمعت أنيناً ، فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

أشجـاك نـوح حمـائم السِّدْر ... أهجن منـك بـلابـل الصــدر
أم عــزَّ نـومــك ذكــر غــانيــة ... أهــدت إليك وســاوس الفكـر
يــا لـيلة طــالــت على دَنِـف[2] ... يشكـو الـسهــاد وقـلة الصبــر
سلمت من تهــوى لحـر جــوىً ... مـتــوقــد كـتـوقـد الـجـمــر
فـبــدر يـشـهــد أنـني كـلف ... مـغــرم بحـب شبيهـة الـبـدر
مــا كنت أحسـبنـي أهيم بـهــا ... حتى بـليت ، وكـنـت لا أدري

ثم انقطع الصوت ، فلم أدرِ من أين جاء ، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين ، ثم أنشد :

أشجــاك من ريــا خيــال زائــر ... والليـل مسـود الـذوائب عـاكــر
واغتـال مهجتك الهـوى برسيسـه ... واهتـاج مقلتـك الخيـال الـزائـر
نــاديـت ريــا والــظلام كــأنــه ... يـمٌّ تـلاطم فـيــه مـوج زاخــر
والبـدر يسري في السمـاء كـأنـه ... ملك تـرجـل والنجـوم عسـاكــر

---

(١) من اللهو : أي شغل عن الصلاة .
(٢) الدنف : هو الذي أضناه الهوى وأسقمه الغرام .

وترى به الجوزاء ترقص في الدجى رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
يا ليل ، طُلت على محب ماله إلا الصباح مساعد وموازر
فأجابني : مت حتف أنفك واعلم أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ، فرأيت شاباً مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين ، فسلمت عليه ، فقال : اجلس من أنت ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسي ، قال : ألك حاجة ؟ قلت : نعم ، كنت جالساً في الروضة فما راعني إلا صوتك ، فبنفسي أفديك ، فما الذي تجد ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ، غدوت يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه . ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال ، كاملة الملاحة ، فوَقَفَت عليَّ فقالت : يا عتبة ، ما تقول في وصل من تطلب وصلك ؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ، ولا قفوت لها أثراً ، وأنا حيران أنتقل من مكاني إلى آخر ، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس ثم أنشد :

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدي
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي ، وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس في جنة الخلد

فقلت : يا ابن أخي تب إلى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك هول المطلع ، فقال : ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارظان ، ولم أزل معه إلى أن طلع الصبح ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، فلعل الله أن يكشف كربتك ، فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الأربعاء ، أما ينفك يحدث لي بعد النهي طربا

مـا إن يـزال غـزال مـنـه يـقـتـلـنـي ۔ يـأتي إلى مسجـد الأحـزاب منتقبـا
يـخـبـر الـنـاس أن الأجـر هـمـتـه ومـا أتى طـالـبـاً لـلـخـيـر مـحـتـسـبـا
لـو كـان يبغي ثـوابـاً مـا أتى صلفـاً مضمخـاً بفتيت المسـك مختضبـا

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر ، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن ، فوقفن عليه وقلن له : يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك ، وكاسفة بالك ، قال : وما بالها ، قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة[1] فسألتهن عن الجارية ، فقلن : هي ريا ابنة الغطريف السلمي ، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال :

خليلي ، ريـا قـد أجـدَّ بُكـوهـا وسارت إلى أرض السماوة عيرها
خليلي ، إني قد عشيت[2] من البكى فهـل عند غيـري مقلة أستعيرهـا

فقلت لـه : إني قد وردت بمـال جزيـل أُريد بـه أهل السـتر، ووالله لأبذلنّه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى ، فقم بنا إلى مسجد الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت: أيها الملأ ما تقولون في عتبة وأبيه ، قالوا : من سادات العرب ، قلت : فإنه قد رُمي بداهية من الهوى ، وما أُريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم ، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادراً فاستقبلنا ، وقـال : حييتم يا كرام ، فقلنا : وأنت فحياك الله ، إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم أكرم منزل ، ثم نادى : يا معشر العبيد أنزلوا القوم ، ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح ، فقلنا : لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة ابن الحباب بن المنذر ، فقال : إن التي تخطبونها أمـرها إلى نفسها ، وأنا أدخل أخبرها ، ثم دخل مغضباً على ابنته ، فقالت : يا أبت مالي أرى الغضب في وجهك ، فقال : قد ورد الأنصار يخطبونك مني ، فقالت : سادات كرام ،

---

(١) بادية بين الكوفة والشام .
(٢) العشا : ضعف البصر .

استغفـر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلمن الخـطبـة منهم ؟ فقـال : لعتبـة بن الحباب ، قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هٰذا أنه يفي بمهوعد ، ويدرك إذا قصد ، فقال : أقسمت لا زوجتك به أبداً ، ولقد نُمي إليّ بعض حديثك معه ، فقالت : ما كان ذٰلك ، ولٰكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً ، حسن لهم الرد ، فقال : بأي شيء ؟ قالت : أغلظ لهم المهر ، فإنهم يرجعون ولا يجيبون ، فقال : ما أحسن ما قلت ، ثم خرج مبادراً ، فقال : إن فتاة الحي قد أجابت ، ولكني أُريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا ، فقل ما شئت ، فقال : ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد ، وخمسة أكرشة عنبر ، فقال عبد الله : لك ذلك كله ، فهل أجبت ؟ قال : أجل : قال عبد الله : فأنفذت نفراً من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ، ثم صنعت الوليمة ، وأقمنا على ذلك أياماً ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ، ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف ، فودعناه وسرنا ، حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة بن الحباب ، فقتل منهم رجالاً ، وجرح آخرين ، ثم رجع وبه طعنة تفور دماً ، فسقط إلى الأرض ، وانثنى بخده ، فطردت عنا الخيل وقد قضي عتبة نحبه ، فقلنا : واعتبتاه فسمعتنـا الجاريـة ، فألقت نفسهـا من البعير ، وجعلت تصيح بحرقة ، وأنشدت :

تصبّـرت لا أني صبرت ، وإنمـا	أُعلل نفسي أنهـا بـك لاحقـة
فلو أنصفت روحي لكانت إلى الردَى	أمـامك من دون البـريـة سـابقـة
فمـا أحد بعـدي وبعـدك منصف	خليـلاً ، ولا نفس لنفس موافقـة

ثم شهقت وقضت نحْبها ، فاحتفرنا لهما قبراً واحداً ودفناهما فيه ، ثم رجعت إلى المدينة فأقمت سبع سنين ، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة ، فقلت : والله لآتين قبر عتبة أزوره ، فأتيت القبر ، فإذا عليها شجرة عليها عصائب حمر وصفـر ، فقلت لأرباب المنزل : ما يقال لهذه الشجرة ؟ قالوا : شجرة العروسين .

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن

من الأسانيد ، وهو حديث سويد بن سعيد عن علي بن مُسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه « مَن عشق وعف ، وكتم فمات ، فهو شهيد » ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً ، ورواه الخطيب عن الأزهري عن المعافى بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ، ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز ابن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس .

وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال « سبحان مقلب القلوب » وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه ، فلما همّ بطلاقها قال له « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فلما طلقها زوّجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات ، فكان هو وليها، وولي تزويجها من رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعُقِدَ عقد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ، وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ ، [الأحزاب : ٣٧] .

وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل بها المائة .

وقال الزهري : أول حب كان في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها ، وكان مسروق يسميها : حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو « أرسَلَني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها : أكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبِّل أهله وهو صائم ؟ فقالت : لا ، فقال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ،

فقالت أم سلمة رضي الله عنها إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها » .

وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : كان إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها ، وقلة صبره عنها .

وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشترى جارية رومية ، فكان يحبها حباً شديداً ، فوقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها ، وكانت تكثر من أن يقول له : يا بطرون أنت قالون ، تعني يا مولاي أنت جيد ، ثم إنها هربت منه ، فوجد عليها وجداً شديداً ، وقال :

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت فاليوم أعلم أني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير ، وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها ، فقال : ذلك ما لا تملك .

فالجواب : وبالله التوفيق : أن الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز ، والنافع والضار ، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة ، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه ، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ، ونحن نذكر النافع من الحب والضار ، والجائز والحرام .

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، وبها قامت الأرض والسموات ، وعليها فطرت المخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله ، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه ،

وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته .

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله ، وفطرته التي فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا بِكُم من نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون ﴾ ، [النحل : ٥٣] وما تعرَّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

والمحبة لها داعيان : الجمال والإجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه ، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، [آل عمران : ٣١] وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَن يَتَوَلَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ ، [المائدة : ٥٤ ـ ٥٦] .

فالولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو مواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالي عبده بحسب محبته له .

ولهٰذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه ، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته .

وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره في المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله ، قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

أنداداً يُحِبُّونَهُمْ كحُبِّ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] وأخبر عمن سوّى بينه وبين الأنداد في الحب أنهم يقولون في النار لمعبوديهم ﴿ تَاللَّهِ إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ، [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] .

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله والنار للمشركين به فيه .

وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه « لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » فكيف بمحبة الرب جلّ جلاله ؟ وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « لا ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هٰذه الغاية .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره ، فعطاؤه ومنعه ، ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله ، وإماتته وإحياؤه ، وبره ، ورحمته وإحسانه ، وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه ، وإغاثة لهفته ، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذٰلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضي وطَره منها وكلاءته وحراسته له ، وهو يقضي وطره من معصيته ، يعينه ويستعين عليها بنعمه ، من أقوى الدواعي إلى محبته ، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذٰلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته ؟ فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحبب إليه بنعمه ، وهو غني عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

فَأَلأَمُ اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه .

وأيضاً ، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، والله سبحانه يريدك لك ، كما في الأثر الإلٰهي « عبدي كلٌّ يريدك لنفسه ، وأنا أُريدك لك » فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة سواه ؟

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً .

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته ؟

وأيضاً فمطالبك ـ بل مطالب الخلق كلهم جميعاً ـ لديه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من في السمٰوات والأرض كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ، ويحب أن يُسأل ، ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله في طلبه ، وبعث إليه معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال « من يسألني فأُعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » كما قيل : أدعوك وللوصل تأبى ، أبعث رسولي في الطلب ، أنزل إليك بنفسي ، ألقاك في النوم .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، ولا يجيب الدعوات ، ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ،

ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الطلبات سواه ؟ فهو أحق من ذكر ، وأحق من شكر وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأنصر من ابتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قصد ، وأعز من التُجىء إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لا شريك له ، والفرد فلا ندَّ له ، كل شيء هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ، يطاع فيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أطيع ، ويُعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه[1] لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغي له أنْ ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ، ولو ملك الوجود بأسره

فصل : كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة رؤية الله

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين :

أحدهما : كمال المحبوب في نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه .

---

(١) عنت : أي خضعت وذلت .

والأمر الثاني كمال محبته ، واستفراغ الوسع في حبه ، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء .

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل ، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي ، ونظائر ذٰلك على حسب شوقه وشدة ارادته ومحبته .

وإذا عرف هٰذا ، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه ، بل هو مقصود كل حي وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها وأجل ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفوتت أعظم اللذات المسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، كما قال تعالى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، [الأعلى : ١٦ ، ١٧] وقال السحرة لفرعون لما آمنوا ﴿ فَٱقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ، وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، [طه : ٧٢ ، ٧٣] .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هٰذه اللذة الدائمة في دار الخلد . وأما الدنيا فمنقطعة . ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم . بخلاف الآخرة . فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبداً ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهٰذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله ﴿ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ ، [غافر : ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هي المستقر .

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة ، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها ، لم يذم تناولها ، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة .

إذا عرف هٰذا ، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها : هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله ، وسماع كلامه منه ، والقرب منه ، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية : « فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وفي حديث آخر « إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم » .

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك » .

وفي كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعاً « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن ، إذا سمعوه من الرحمٰن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذٰلك » .

وإذا عرف هٰذا ، فأعظم الأسباب التي تحصّل هٰذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق ، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته ، فإن ذٰلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته ، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ، ونعيم الدنيا وسرورها ، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذٰلك تنقلب آلاماً وعذاباً ، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله ، وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ، وقد تقدم ذٰلك ، وكان غيره يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى   فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره :

أف للدنيا إذا ما لم يكن   صاحب الدنيا محباً أو حبيباً

ويقول الآخر :

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ذهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر :

تشكى المحبون الصحابة ، ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها ؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلٰهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهٰذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام .

والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة ، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة ، ويثاب الإنسان على هٰذه اللذة أتم ثواب ، ولهٰذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه ، فكيف بلذة إيمانه ، ومعرفته بالله ، ومحبته له ، وشوقه إلى لقائه ، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم ؟

النوع الثاني : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاماً أعظم منها ، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودة بينهم في الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله ، ويستمتعون

بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَبلغْنا أجَلَنَا ٱلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ : ٱلنَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ، إِنَّ رَبكم حكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، [الأنعام : ١٢٨ ، ١٢٩] ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق ، وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعاماً لذيذاً مسموماً يستدرجه به إلى هلاكه ، قال تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ ، [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] .

قال بعض السلف في تفسيرها : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُون ، فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥] .

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ ، [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال في حقهم ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ، [التوبة : ٥٥] .

وهذه اللذة تنقلب آخراً آلاماً من أعظم الآلام كما قيل :

مآرب كانت في الحياة لأهلها عِذاباً ، فصارت في المعاد عَذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألماً ، ولا تمنع أصل لذة دار القرار ، وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة ، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، وما لم يعن عليها فهو باطل .

فصل : الحب الذى لا ينكر ولا يذم

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم ، بل هو أحمد أنواع الحب ، وكذلك حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما نعني المحبة الخاصة ، والتي تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه ، وإلا فكل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله لا يدخل في الإسلام إلا بها ، والناس متفاوتون في درجات هٰذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله ، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهٰذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف ، وتسخي البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفي الذهن ، وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة ، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد ، كما قيل :

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه ، وتشرح الصدر ، وتحيي القلب ، وكذلك محبة كلام الله ، فإنه من علامة محبة الله ، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله ، فانظر محبة القرآن من قلبك ، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم ، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه ، كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلمَ هجرت كتابي ؟
أما تأملتَ ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه « لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله » وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه « اقرأ عليَّ ، فقال : اقرأُ عليك ، وعليك أُنزل ؟ فقال : إني أُحب أن أسمعه من غيري ، فاستفتح فقرأ سورة النساء ، حتى إذا بلغ قوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٤١] قال حسبك : فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان من البكاء » وكان

الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمحبي القرآن - من الوجد ، والذوق ، واللذة ، والحلاوة ، والسرور - أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني ، فإذا رأيت الرجل ، ذوقه ، ووجده ، وطربه ، وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات ، وسماع الألحان دون سماع القرآن ، كما قيل :

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد تميل كالسكران

فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان ، والمغرور يعتقد أنه على شيء .

ففي محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه ، وكل حب سوى ذلك باطل ، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه .

فصل : محبة الزوجات

وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها ، بل هي من كماله ، وقد امتن الله سبحانه بها على عباده فقال ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، [الروم : ٢١] فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن قلبه إليها ، وجعل بينهما خالص الحب ، وهو المودة المقترنة بالرحمة ، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ، يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ، [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاووس عن أبيه : كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر .

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها ، وقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان ، وتدبر في صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » ففي هذا الحديث عدة فوائد .

منها : الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مقام الطعام ، والثوب مقام الثوب ،

ومنها : الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو قضاء وطره من أهله ، وذلك ينقض شهوته لها ، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح ، كما في سنن ابن ماجة مرفوعاً « لم ير للمتحابين مثل النكاح » فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواء شرعاً ، وقد تداوى به داود صلى الله عليه وسلم ، ولم يرتكب نبي الله محرماً ، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها ، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا .

وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير النبي صلى الله عليه وسلم في فراقها ، وهو يأمره بإمساكها ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مفارقها ولا بد . فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشي مقالة الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه ، فإنه كان قد تبنى زيداً قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره ، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداها من وراء الباب « يا زينب إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، فقالت ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي ، وقامت إلى محرابها فصلت ، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وعقد النكاح له فوق عرشه ، وجاء الوحي بذلك ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها ، فكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك

وتقول : « أنتن زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب .

ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حبب إليه النساء ، كما في الصحيح عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم « حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » هذا لفظ الحديث ، لا ما يرويه بعضهم « حبب إلي من دنياكم ثلاث » زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا : ما همه إلا النكاح ، فرد الله سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونافح عنه فقال ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ﴾ ، [النساء : ٥٤] .

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها .

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين أمرأة ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فقال « عائشة رضي الله عنها وقال عن خديجة « إني رزقت حبها » .

فمحبة النساء من كمال الإنسان ، قال ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » وذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جَلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية ، بخلاف المشتراة ، فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعاً بأمة غيره .

وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت ، وذلك في قصة مغيث وبريرة لما رآه النبي صلى الله عليه وسلم يمشي خلفها ودموعه تجري على خديه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو راجعته ؟ فقالت : أتأمرني يا رسول الله ؟ فقال : لا ، إنما أشفع ، فقالت : لا حاجة لي به ، فقال لعمه : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغضها له ؟ » ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قد بانت منه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسوي بين نسائه في القسم ، ويقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » يعني في الحب . وقد قال تعالى ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ، [النساء : ١٢٩] يعني في الحب والجماع .

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان ، وكذلك علي رضي الله عنه أتى بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل ، فقال له : ما قصتك ؟ قال : لست بسارق ولكني أصدقك :

تعلقت في دار الرياحي خودة ... يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب ... إذا افتخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي ... أبيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا ... هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه شعره رق له ، وقال للمهلب بن رباح : اسمح له بها ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سله من هو؟ فقال : النهاس بن عيينة ، فقال : خذها فهي لك .

واشترى معاوية جارية ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى طريراً وسيماً بعدما طرَّ شاربه

فسألها ، فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفي قلبه منها .

وذكر الزمخشري في ربيعة أن زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط :

أما في عباد الله أو في إمائه كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل
له مقلة أما الأماقي قريحة وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، فبينا هي بالمزدلفة إذ سمعت من ينشدهما ، فطلبته ، فزعم أنه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه ، فوجهت إلى الحي ، وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه ، وإذا المرأة أعشق له منه لها ، فكانت تعده من أعظم حسناتها وتقول . ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الخرائطي : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ، فكتب الغلام إليها يوماً :

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطيتني من ريق فيك البارد
وكأن كفك في يدي ، وكأننا بتنا جميعاً في فراش واحد
فطفقت يومي كله متراقداً لأراك في نومي ، ولست براقد

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت ، وكل ما أبصرته ستناله مني برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانقي فتبيت مني فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام ، وأحسن حالهما على فرط غيرته .

وقال جامع بن برخية : سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة : هل في حب دهمنا من وزر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر ، فقال سعيد : والله ما سألني أحد عن هٰذا ، ولو سألتني ما كنت أجيب إلا به .

فعشق النساء ثلاثة أقسام : قسم هو قربة وطاعة ، وهو عشق امرأته وجاريته ، وهٰذا العشق عشق نافع ، فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح ، وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهٰذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس .

وعشق هو مقت من الله وبُعد من رحمته ، وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه ، وهو عشق المردان ، فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله ، وطرد عن بابه ، وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله ، كما قال بعض السلف : إذا سقط العبد من عين الله ، ابتلاه بمحبة المردان ، وهٰذه المحبة هيَ التي جلبت على قوم لوط ما جلبت ، فما أتوا إلا من هٰذا العشق ، قال الله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، [الحجْر : ٧٢] .

ودواء هٰذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب ، وصدق اللجإ إليه ، والاشتغال بذكره ، والتعوض بحبه وقربه ، والتفكر في الألم الذي يعقبه هٰذا العشق ، واللذة التي تفوته به ، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب ، وحصول أعظم مكروه ، فإذا أقدمت نفسه على هٰذا وآثرته فليكبِّر على نفسه تكبير الجنازة ، وليعلم أن البلاء قد أحاط به .

والقسم الثالث : العشق المباح وهو الواقع من غير قصد ، كعشق من وصفت له امرأة جميلة ، أو رآها فجأة من غير قصد ، فتعلق قلبه بها ، ولم يحدث له ذٰلك العشق معصية . فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ، والأنفع له مدافعته والاشتغال عنه بما هو أنفع له منه ، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى ، فيثيبه الله على ذٰلك ، ويعوضه على صبره لله وعفته ، وتركه طاعة هواه ، وإيثار مرضاة الله وما عنده .

والناس في العشق ثلاثة اقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق ، وقلبه يهيم في كل واد ، له في كل صورة جميلة مراد ، ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع

في وصاله أولا ، ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله . وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل واد ، وله في كل صورة جميلة مراد فيوماً بحزوری ويوماً بالعقيق وبالعذيب يوماً ويوماً بالخليصاء .

وتـارة ينتحي نـجـداً وآونـة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

فهٰذا عشقه أوسع ، ولٰكنه غير ثابت كثير التنقل .

يـهيم بهـذا ثـم يعـشق غيـره ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما في واحد ، ولٰكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال ، وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم ، وحبه أقوى ، لأن الطمع يمده ويقويه .

وأما حديث « من عشق فعف » فهٰذا يرويه سويد بن سعيد ، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه .

قال ابن عدي في كامله : هٰذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذا ذكر البيهقي وابن طاهر في الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج ابن الجوزي وعده في الموضوعات ، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله ، وقال : أنا أتعجب منه .

قلت : والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما مرقوفاً عليه ، فغلط سويد في رفعه .

قال محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به ، فعاتبه على ذٰلك ، فأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان بعد ذٰلك يسأل عنه ولا يرفعه ، ولا يشبه هٰذا كلام النبوة .

وأما رواية الخطيب له عن الزهري : حدثنا المعافى بن زكريا ، حدثنا قطبة بن

الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً فمن أبين الخطإ ، ولا يحمل هشام عن أبيه عن عائشة مثل هٰذا عند من شَم أدنى رائحة من الحديث ، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولا حدثت به عروة عنها ، ولا حدث به هشام قط .

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً ، فكذب على ابن الماجشون ، فإنه لم يحدث بهذا ، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هٰذا من تركيب بعض الوضاعين ويا سبحان الله ! كيف يحتمل هٰذا الإسناد مثل هذا المتن ؟ فقبح الله الوضاعين .

وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل : حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً ، وهٰذا غلط قبيح ، فإن محمد بن جعفر هٰذا هو الخرائطي ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح ، لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتدال عن يعقوب هٰذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح ، والخرائطي هٰذا مشهور بالضعف في الرواية ، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هٰذا الحديث هو الميزان ، وإليهم يرجع في هٰذا الشأن ، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ، ويرجع في التصحيح إليه ، ولا من عادته التسامح والتساهل ، فإنه لم يصف نفسه له ، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين قد أنكره وشهد ببطلانه .

نعم ابن عباس لا ينكر ذٰلك عنه .

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه : أنه سئل عن الميت عشقاً ، فقال « قتيل الهوى لا عقل له ولا قَوَد » ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ ، فقال : ما شأنه ؟ قالوا : العشق ، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق ، وقد تقدم ذٰلك .

فهٰذا نفس ما روى عنه ذٰلك .

ومما يوضح ذٰلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم عدّ الشهداء في الصحيح ، فذكر المقتول في الجهاد ، والمبطون ، والحرق ، والنفساء يقتلها ولدها ، والغرق ، وصاحب ذات الجنب ، ولم يذكر منهم من يقتله العشق .

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ، ويعف لله ، ويكتم لله ، ولٰكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه ، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه ، هٰذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، [النازعات : ٤٠ - ٤١] وتحت قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، [الرحمٰن : ٤٦] .

فنسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه ، وابتغى بذلك قربه ورضاه .

تم بحمد الله ومنّه طبع هٰذا الكتاب

فهرس الفصول

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٤٥/١٩٩٤







